أهوال القيامة

علي أحمد الطهطاوى
رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

دار الروضة
للنشر والتوزيع

مقدمة

اعلم أيها المسلم أنه عندما يختل نظام العالم .. وتدق ساعة الخطر مؤذنة بقرب زوال الدنيا ، معلنة دنوّ انقضاء أجلها ، تكون أهوال وأهوال ، وفظائع وشـــدائد تصمُّ الآذان وتصكُّ الأسنان ، وتفزع القلوب وتوجفها . وتخشع الأبصار وتزيغها ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑧ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ⑨ ﴾ [النازعات] ، وتهلع النفوس وتزعجها ، وتشيب منها الولدان ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى.

فمن شمس تُكوّر ، وتُلفُّ لفاً ، ويذهب بنورها وضوئها ، ونجوم تنكدر وتتساقط ، وجبال تتفتت ، ثم تسير سيراً سريعاً : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ⑧⑧ ﴾ [النمل] .

إلى نياق (جمع ناقة) قد مضى على حملها عشرة أشهر كان صاحبها ينتظر بفروغ صبر أولادها المترقبة ، وأجنتها المحبوبة المنتظرة ، فيتركها بدون أكل ومرعى ، بل لا يسأل عنها مطلقاً ولا عن أجنّتها التى فى بطونها ، لأن الخوف قد ملك عليه نفسه ، واستولى على مشاعره ، فانشغل بذاته عن غيره .

إلى وحوش كانت ضارية تفتك بمن يقترب منها ، وتفترس من يدنو منها ، ولكنها الآن تختلط ببعضها وتحشر فى مكان واحد وكأن بينها وبين غيرها صلة قديمة ، وارتباطاً وثيقاً ، ولكن الخوف قد جمعها، والوجل قد ألف بينها وبين غيرها ، وإلى بحار تختلط

ببعضها ثم تجف وتيبس ثم تُملأ ناراً متأججة .. وذلك هو تسجيرها .

يشهد لذلك كله قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) ﴾ [التكوير] .

إلى غير ذلك من الأهوال التى وردت فى القرآن الكريم .

روى أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية عن أُبى بن كعب[1] قال : « بينما الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، وبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، وبينما هم كذلك إذ تحركت الأرض فاضطربت ، لأن الله تعالى جعل الجبال أوتاداً ، ففزعت الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واضطربت الدواب والطيور والوحوش ؛ فماج بعضهم فى بعض ، فقالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر اليقين، فانطلقوا فإذا هى نار تتأجج فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأهلكتهم »[2] .

---

(١) أبى بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصارى الخزرجى ، الصحابى الجليل ، وأول من كتب الوحى لرسول الله ﷺ ، شهد العقبة وبدراً .. عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر وأشدهم فى دين الله عمر وأصدقهم حياءً عثمان وأقضاهم علىّ ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبى بن كعب ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح » ، مات سنة ٣٠هـ (كما فى أسد الغابة) .

(٢) يقال : تَهبُّ رياح باردة من الشام تهلك المؤمنين ، ويبقى شرار الناس .

وهذه من نصوص القرآن ظاهرة ، لا يستطيع المؤمن ردها ، ولا التكذيب بها ، وفى هذه الصيحة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) ﴾(١) [ص] وفى قوله : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) ﴾ [يس] تكون السماء كالمهل(٢) وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميماً .. وفيها تتشقق السماء فتكون أبواباً (من كثرة الشقوق) وفيها يحيط سرادق من نار بحافات الأرض ، فتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتى أقطار السماء والأرض، فتتلقاهم الملائكة يضربون وجوههم حتى يرجعوا.

وذلك قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) ﴾ [الرحمن] .

* * *

(١) فواق (بفتح الفاء وضمها) : أى : توقف مقدار فواق ، وهو ما بين الحلبتين من اللبن ، أو معناه : رجوع .

(٢) المهل (بضم الميم وسكون الهاء) : ما يتبقى أسفل الزيت . والعهن : الصوف المندوف .

نهاية الكون
سمواته وأرضه

كيف يفنى الكون ؟ وحتى نستطيع الإجابة عن ذلك لا بد أن نعرف أولاً كيف خلق الكون ؟ والإجابة عن هذا السؤال وغيره من التساؤلات العديدة التى تطرأ بأذهاننا موجودة بكتاب الله العظيم .

وباختصار شديد نذكر بعض ما ورد بالقرآن الكريم بخصوص هذا الموضوع :

قال تعالى فى سورة هود : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ(١) أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۝٧ (٢) ﴾ [هود] وفى صحيحى مسلم والبخارى ورد حديث بألفاظ كثيرة منها : أن الناس سألوا رسول الله ﷺ قالوا : أخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟

قال : « كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى اللوح المحفوظ ذكر كل شيء » .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) ليبلوكم: ليختبركم وهو أعلم بأمركم .
(٢) أحسن عملاً : أطوع لله وأورع عن محارمه .

« إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » .

قال العلماء ـ والعلم عند الله : إنه لما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق أيبس الماء وجعله شيئاً واحداً .. خلق الأرض وقدر أقواتها .. ثم تصاعد كثير من بخار الماء .. فثار منها دخان .. ارتفع فوقها وسما عليها .. فسمّاه الله سماء ، ثم فصل عز وجل بين السماء والأرض بالهواء .

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا (١) فَفَتَقْنَاهُمَا (٢) وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (٣) أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾

[الأنبياء]

فالماء هو أصل الوجود .. خلق منه كل شيء حي .. كما خلق منه كل شيء مسبب للحياة .. خلق منه الكون ومن عليه ، والله أعلم ، ثم استوى رب العرش إلى السماء وهى دخان وفتق السماء إلى سبع سموات وخلق فى كل سماء خلقها وزين السماء الدنيا بالكواكب كما فتق الأرض أيضاً وجعلها سبع أرضين .

ويفسر الله عز وجل ذلك فيقول : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ (٤) فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ

---

(١) كانتا رتقاً : كانتا ملتصقتين بلا فصل .

(٢) ففتقناهما : ففصلنا بينهما بالهواء .

(٣) وجعلنا من الماء كل شىء حى : أى : الماء أصل كل الأحياء ، ومنه خلق كل شئ نام حيواناً أو نباتاً .

(٤) دخان : بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض .

(١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾
[فصلت]

ثم دحيت الأرض .. ففجرت كل ما كان مودعاً فيها .. فأخرج منها الماء ، وشقق فيها الأنهار ، وجعل فيها الرمال والجبال والطرق .. فبسطت واتسعت وصارت ممهدة لسكنى أهلها .. وأمطرت السماء فأنبتت الأرض ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾ [الحج]

وقال تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) ﴾
[النازعات]

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « **لما خلق الله الأرض جعلت تميد(١) فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت ..** » .

فحين خلقت الأرض جعلت تضطرب ولا تثبت .. فأرساها الله عز وجل وثبتها وثقلها بجبال كى لا تميد بالناس ، وقد ثبت فيما بعد أن السلاسل الجبلية تنغرز جذورها فى طبقات الأرض السفلى أتدرى أى الطبقات ؟ بالغلاف .

تصور تلك الأرض كلها .. أرض العالم كله .. انفجرت منها

---

(١) تميد : تضطرب ولا تثبت .

براكين هائلة فى آن واحد ؛ فزلزلت الأرض وخلعت هذى الجبال بأكملها من جذورها ونسفتها نسفاً .. ماذا يحدث للأرض بعد ذلك؟ أيمكنها الاستقرار بأهلها ؟

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ (١) أَن تَمِيدَ بِهِمْ(٢) وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً(٣) لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا (٤) وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ(٥) فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾(٦) ﴾ [الأنبياء]

كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ(٧) تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ(٨) وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ(٩) الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ .

[الرعد]

فالكون فى حالة دوران مستمر .. الأرض تدور حول

---

(١) رواسى : جبالاً ثوابت .
(٢) أن تميد بهم : لئلا تضطرب بهم فلا تثبت .
(٣) فجاجاً سبلاً : طرقاً واسعة مسلوكة بين الجبال .
(٤) سقفاً محفوظاً : مصوناً من الوقوع أو التغير .
(٥) كلٌ : أى : كلٌ من الشمس والقمر .
(٦) فى فلك يسبحون : يدورون أو يجرون فى فلك السماء .
(٧) بغير عمد : بغير دعائم وأساطين تقيمها .
(٨) استوى على العرش : استواء يليق به سبحانه وتعالى .
(٩) يدبر الأمر : يصرف العوالم كلها بقدرته وحكمته .

الشمس .. والقمر يدور حول الأرض ولكن بشكل أسرع بكثير من دوران الأرض .. حتى الشمس .. التى قيل عنها فيما مضى أنها تبقى ثابتة وسط مجموعة السيارات .. تبيّن من خلال دراسة تنقلات البقع الشمسية المظلمة الموجودة بها أنها تدور هى أيضاً علــى ذاتهــا ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾ [يس] .

وقال عز وجل : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ (١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾ [إبراهيم] .

وهكذا يتعاقب الليل والنهار .. تمر الأيام والأسابيع .. وتمضى الشهور والأعوام ، ولنتأمل سوياً ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة حين قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر ، ويكون الشهر كالجمعة ، وتكون الجمعة كاليوم ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كإحراق السعفة** » .

لو عدنا إلى الماضى البعيد لوجدنا أن الأعمار كانت طويلة ، والأيام أيضاً كانت طويلة ، ورويداً .. رويداً بدأت سلالة آدم تضعف .. قصرت الأعمار ، وقصرت معها الأيام . ترى ! ما معنى هذا؟! وما المراد بالحديث الشريف ؟ أيعنى سرعة دوران الكون حتى يتعاقب الليل والنهار بصفة أسرع ؟! ومتى يحدث ذلك

---

(١) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين : يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ، دائمين فى منافعهما لكم .

بصفة واضحة جلية ؟! أبعد طلوع الشمس من مغربها وبدء اختلال نظام الكون ؟! العلم عند الله .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ(١) لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس]

اقرأ معنى الآيات الكريمة الآتية، علّنا نعرف لماذا ميز الله ضوء الشمس عن نور القمر وعبّر عن الأول بالسراج والآخر بالنور ؟

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (٢) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا(٣) وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا(٤) ﴾ [نوح : ١٥، ١٦]

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي(٥) جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا(٦) وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الفرقان] .

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا(٧) ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا(٨) ﴾ [النبأ : ١٢، ١٣] .

ثبت أن الشمس نجم يشع ضوءه ، وهى مصدر الحرارة والطاقة

---

(١) قدّره منازل : صير القمر ذا منازل يسير فيها .
(٢) سموات طباقاً : كل سماء فوق الأخرى .
(٣) نوراً : منوراً لوجه الأرض فى الظلام .
(٤) الشمس سراجاً : مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام .
(٥) تبارك الذى : تعالىٰ وتمجّد أو تكاثر خيره .
(٦) بروجاً : منازل للكواكب السيارة .
(٧) سبعاً شداداً : سموات قويات محكمات .
(٨) سراجاً وهاجاً : مصباحاً منيراً وقاداً (الشمس) .

والحياة فى الوجود ، أما القمر فهو كوكب لا يشع بواسطة ضوئه الخاص ، إنما يعكس أشعة الشمس .

ولننتقل إلى نقطة أخرى :

قال تعالى :

﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ(١) وَخَسَفَ الْقَمَرُ(٢) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٣) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ(٤) ﴾ [القيامة : ٥ـ ١٠] .

كيف يخسف القمر ؟ ومتى يجمع الشمس والقمر ؟

خلال دوران القمر قد يحدث أن يمر بين الشمس والأرض تماماً ، وحينئذ يحجب قرص نور الشمس عن الأرض ويحدث الظلام فجأة ، وهذا هو كسوف الشمس ، وبالعكس قد يمر القمر فى منطقة الظلام التى تحدثها الأرض فلا تستطيع أشعة الشمس أن تصل فيحصل خسوف القمر .

تلك هى ظاهرة الكسوف أو الخسوف فى الدنيا .. لكن كيف يخسف أو بمعنى آخر كيف يذهب ضوء القمر عند قيام الساعة ؟ وكيف يجمع بين الشمس والقمر ؟ أيكون ذلك نتيجة لاختلال فى

---

(١) برق البصر : دهش وتحير فزعاً مما رأى .

(٢) خسف القمر : ذهب ضوؤه .

(٣) جمع الشمس والقمر : قيل فى الطلوع من المغرب مظلمين ، والله اعلم .

(٤) أين المفر ؟ : أين المهرب من العذاب أو الهول .

نظام حركة الكون ؟ أم هناك سبب آخر ؟ أم هى عدة أسباب مجتمعة ؟

وصل العالم الفلكى الهولندى (جيرار كويبر) إلى أن النظام أو المجموعة الشمسية قد تكونت من غيمة غازية هائلة ومن الغبائر التى كانت تحوم فى الفضاء إذ تكاثف قسم من هذه المواد ومنها الهيدروجين ليشكّل الشمس الهائلة ، والقسم الآخر قد تبدد بعكس الأول وكوّن تكتلات كثيرة من الغبائر والغاز ومنها الأرض .

المهم أن العلماء توصلوا إلى أن ذرات الهيدروجين هى المكونة لغالبية كتلة الشمس الغازية ، حيث انجذبت باتجاه مركزها بسرعة فائقة بفعل الجاذبية ، وأثناء عملية الجذب تولدت حرارة شديدة ، وبدأت ذرات الهيدروجين تتحول إلى ذرات هليوم تحرر طاقة شعاعية أقوى من احتراق هيدروجين الهواء بتسعين مليون مرة .

أتعلم أن حرارة الشمس السطحية تصل إلى (٥٨٠٠ درجة مئوية !) وحرارتها الجوفية (١٥ مليون درجة مئوية!) .

وأضاف العلماء أن رحلة النور من الشمس إلى الأرض (٨ دقائق ونصف تقريباً) ، فلو فرضنا أنها انطفأت ، فإن آخر خيوطها الضوئية تصل إلى الأرض بعد ذلك (بـ ٨ دقائق) ، وتبدأ الأرض مرحلة الاحتضار .

ولكن هل يحتمل أن تنطفىء الشمس يوماً ؟ أجل ، ويكون ذلك بعد أن تتحول كل كمية الهيدروجين الموجودة فيها إلى هليوم .

ماذا يحدث حينئذ ؟ ماذا لو انطفأت الشمس وفقدت جاذبيتها التى تعادل ٢٨ ضعف جاذبية الأرض ؟ أيختل نظام الكون كله وينطفئ القمر وسائر الكواكب ؟ أتتناثر وتتساقط جميعاً فى كل اتجاه ؟ أهكذا .. يخسف القمر ويجمع مع الشمس ؟ العلم عند الله .

قال تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(٢) ﴾ [التكوير : ١ ، ٢] .

ولنتأمل الشمس التى سوف تقع فى يوم ما على كوكبنا الأرضى : حجمها يساوى مليون و ٣٠٠ ألف مرة حجم الأرض وقطرها ١٠٩ أضعاف قطر الأرض ، أما كتلتها ٣٣٣٠٠٠ ضعف كتلة الأرض ، تلك الشمس الهائلة العظيمة تبعد عن الأرض بما يقرب من (١٥٠ مليون كم) . أى : ما يوازى ٤٠٠ ضعف المسافة بين الأرض والقمر ، وبمعنى آخر فهى تبعد عن كوكبنا على مسافة ١٧ سنة من الطيران المتواصل بواسطة أسرع طائرة ركاب. تَخيَّلْ لو أن هذه الشمس فقدت ضوءها وضاعت جاذبيتها ، وتكورت .. ووقعت على الأرض .. ماذا يحدث فى الكون ؟

ماذا يحدث مهما فقدت من وزنها أو قلّ حجمها وما إلى ذلك ؟ وما هى الكوارث التى عساها أن تقع على الأرض بمن عليها ؟

---

(١) الشمس كُوِّرَتْ : أزيل ضياؤها أو لُفّتْ وطُوِيَتْ .

(٢) النجوم انكدرت : تساقطت وتهاوت .

مهلاً عزيزى القارئ .. لا تنزعج .. الساعة لا تقوم عليك .. ألم أقل لك إنها لن تقوم إلا على شرار الناس ؟!

تصوَّرْ أن الأخصائيين أعطوا الشمس عمراً يزيد عن ٤ مليارات من السنين ماذا لو علمت الشمس بهذا ؟! وأكدوا أنها لن تنطفئ إلا بعد أن تتحول كل كمية الهيدروجين الموجودة فيها إلى هليوم وذلك لن يحدث إلا بعد انقضاء حوالى ٤٠ مليار سنة أخرى ، لكنها لا بد أن تنطفئ قبل ذلك بكثير .. بكثير جداً .. سواء لهذا السبب أو لغيره ، لأن قيام الساعة قريب .. قريب نسبياً « بالنسبة إلى ما مضى من عمر الدنيا ، وأقرب بكثير من ٤٠ مليار سنة ، لكن علمها عند الله تعالى وحده لا شريك له حيث أخبر أنها آتية وأنها لا تأتى إلا بغتة ، ولا يعلم وقتها على التعيين إلا الله تعالى » .

كيف تقول مضى من عمر الشمس ٤ مليارات من السنين وبقى ٤٠ مليار سنة !

كيف تؤكد أن عمر الشمس أو غيرها من مخلوقات الله تعالى بقى منه أكثر مما مضى ! وقد قال رسول الله ﷺ : «**ألا إن آجالكم فى آجال الأمم قبلكم كما بين صلاة العصر إلى مغرب الشمس**»(1) . هذا ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام منذ قرون مضت ، فماذا نقول ـ نحن ـ اليوم ؟

وقد قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء]

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن عمر .

يكـاد عقلـى ينفجـر .. تساؤلات عديدة تقفز إلى ذهنى ثم تعود .. تقفز وتعود .. أعلم أنى لن أستريح إلا لو عرضتها عليك .. ورب تسـاؤل يؤدى إلى فكرة لم نصل بهـا اليـوم إلى شيء وقـد توصلنا فى الغد إلى أشياء .

بعد الوصول إلى النهاية اسمح لى أن أعود إلى البداية .. بداية خلق الكون .. فكر معى .. أحقاً خلق من ماء كما فسر بعض العلماء ؟ سبق وذكرنا ما قاله الله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ أيعنى العلى القدير بذلك أن الكون كان أصله ماء ؟

ذكرنا أيضاً قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (٣٠) ﴾ [الأنبياء] .

كلام الله تعالى حق لا ريب فيـه .. ولا يحتـاج إلـى دليل أو إثبات .. وإنما يحتاج إلى تفسير دقيق .. وبالرغم من هذا فقد ثبت بالفعل أن الماء يدخل فى تكوين كل جسم حى سواء أكان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً وما إلى ذلك من سائر الكائنات الحية . بقى تسـاؤل : مم يتكون الماء ؟ يتكون من عنصـرى الهـيـدروجين والأكسجين ، ماذا لو تفككت عناصر الماء ؟ لو انفصل الأكسجين عن الهيدروجين واتحد كل منهما مع عناصر أخرى ؟

لو حـدث ذلك لتحـولت المادة الأصلية وهى الماء إلى مـواد أخرى مختلفة تماماً فى خواصها عن المادة الأصلية .. أى : عن الماء .. لو ثبت أن أجسام الكون المختلفة تحتوى على أحد عنصرى الماء وهما: الهيدروجين ، أو الأكسجين ، أيرجح ذلك احتمال أن الكون كان أصله ماء ؟

سبق وقلنا : إن ذرات الهيدروجين هى المكونة لغالبية كتلة الشمس الغازية ، كما ثبت أن الغلاف الجوى يدخل فيه العديد من العناصر ومنها الأكسجين والهيدروجين .. ثبت .. وثبت .. دعك من كل هذا .. وفكر فيما ثبت من أن الماء نفسه كان أصله هيدروجين .. الهيدروجين الذى هو أصل كل العناصر .. العناصر التى كوّنت المواد المختلفة .. تأمَّلْ معى : الكون كله أصله ذرة واحدة .. ذرة هيدروجين .. ترى! ما سر هذا ؟

لا يسعنى إلا أن أقول : سبحان الله .. الواحد .. الأحد.

(*) أهم مراجع هذا الجزء : معجم القرآن ، التفسير ، الموسوعة (عربية عالمية) .. الناشر : شركة ترادكسيم بجنيف .

نهاية حياة البشر
على الأرض

نعود إلى الإنسان .. إلى البشر .. نصل معهم إلى آخر آخر الزمان .. يتمثل لهم الشيطان .. ينادى : ألا تستجيبون ؟ يصغون إليه .. فيأمرهم بعبادة الأوثان .. وتصير الشياطين ظاهرة فى الأرض حتى يشير الإنسان إلى شيطانه ويقول : هذا قرينى الذى يغوينى ، وينطق الحيوان ، يكلم الإنسان ، وحتى الجماد ! الجماد أيضاً يتكلم !

وقد روى الإمام أحمد عــن أبى سـعيد أن رسول الله ﷺ قال : « **لاتقوم الساعة حتى يخرج الرجل من أهله ، فيخبره نعله ، أو سوطه ، أو عصاه ، بما أحدث أهله بعده** » .

كما روى أيضاً عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال : « **والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس ...** » إلى آخر الحديث .

هكذا تعيش مخلوقات الله فى آخر آخر الزمان ، ويعيش الإنس مع الجان فى محبة ووئام ! .. وتسود الحرية ! .. الحرية المطلقة .. حرية بلا قيود ولا حدود .. فلا أمان لها ولا استقرار بها ! فتكثر جرائم القتل .. عفواً سيدى الإنسان ! أقصد وقائع القتل ! اقتلْ من تشاء .. وقتما تريد .. أنت حر ! ، اشربْ الخمر .. اسكرْ وافرحْ .. العبْ الميسر ! .. اسرقْ وانهبْ .. أنت حر ! ، سرْ فى الطرقات

والشوارع ، اجر وكسرْ ، اضحكْ واصرخْ .. العبْ والْهُ .. وأنت حر.. خرِّبْ .. دمّرْ واهدمْ .. اشتمْ واضربْ .. لا تبالِ بأم أو أب .. بأخ أو أخت .. ولا صديقة أو صديق .. الكل سواء .. لا يهمك شيء .. دمر من تريد .. فأنت بطل متحرر .. أنت حر ! افعل ما تشاء كيفما تشاء ، فالأرض أرضك ، والحياة حياتك ، وأنت حر ! .

مسكين أنت أيها الإنسان .. إنسان ذاك العصر والأوان .. لاتصدق إلا من يأخذك على هواك .. ونسيت .. نسيت يا مسكين أنك لست قاهراً .. إنما أنت مقهور ، مقهور بقدرة الله تعالى الذى استوى على العرش ﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ(1) وَلا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، يراقب كل أفعالك فلا يغفل ولا ينام .. ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .. هذا كرسيه .. فما بال عرشه ! .. صدقنى أيها الإنسان أنت أقل من قطرة فى بحر عالم واسع عظيم مهلاً لا تثر وهاك الدليل .

عندما سأل أبو ذر الغفارى النبى ﷺ عن الكرسى أتدرى ماذا قال ؟ قال رسول الله ﷺ : « **والذى نفسى بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة(2) ، وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة** » .

---

(١) سِنَةٌ : نعاس وغفوة .

(٢) فلاة : صحراء .

فما بالك أنت أيها المسكين ! ما تكون وسط هذا الملكوت الواسع العظيم ! تتساءل : ما الكرسى وما العرش ؟ وأجيبك :

عن ابن عباس قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، قال : «**كرسيه موضع قدميه ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عزّ وجلّ**» . ولتعلم أن العرش هو أعظم مخلوقات الله تعالى .. وهو سقف كل المخلوقات .. ولتعلم أن جميع الخلائق من السموات والأرض .. وما بينهما وما تحتهما .. تحت العرش .. مقهورين بقدرة الله تعالى .. الله الذى يحيط علمه بكل شىء .. وقدره نافذ فى كل شىء.

ومع ذلك فمن رحمته تعالى أن ... لا ... لن أقول لك .. بل اقرأ ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله » .

وما رواه أيضا عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله الله** » .

إلى هذا الحد تمحى الفطرة من تاريخ الإنسان ؟ يفسد ويصاب بالعصيانِ ؟! أيأتى زمانٌ لا يعرف فيه اسم الله ! ماذا لو تفشى الجهل ! ونسى اسم الله ! ورفع من عالم الدنيا !

عن أنس عن النبى ﷺ : « **لا يزداد الناس إلا شُحا ، ولايزداد الزمان إلا شدة ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس** » .

سيقوم البشر بأفعال كثيرة .. كثيرة .. ذكرنا العديد منها سابقا ولا داعى للتكرار .. إنما كل ما ذكرناه من فسق وفساد سوف يزداد ويزداد إلى أن يفوق حده فى ذاك الزمان ، وينسى حتى اسم الله .

أتتكبر أيها الإنسان أن تسجد لله وتسبح له ؟! أتنساه ؟! وهو الذى ﴿ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [الحج : ١٨] .

انتهى كل شىء أيها الإنسان .. إنسان آخر آخر الزمان .. فلتفعل ما تريد .. لم تعد هناك جدوى فى إصلاحك .. لا أمل ولا رجاء منك ، المجهود الذى يضيع من أجلك إنما يضيع سدى ، فلتتحمل مسئولية أفعالك فيما بعد ، فأنا أحذرك .. القيامة قائمة .. قائمة .. فلا تبك ولا تصرخ ولا تندم ولا تفزع يوم تسمع الصوت العظيم .. صوت النفخ فى الصور .. لا تتحسر يوم تقع عليك الأهوال العظمى .. أهوال الساعة الكبرى ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا(١) ﴾ [طه ١٠٢] .

لآخر مرة أحذرك وأقول لك : إن إسرافيل الملك الضخم العظيم .. الذى خلقه الله العلى القدير كما خلق سائر المخلوقات ، إسرافيل الذى لا تراه يمسك بالصُّور .. ينتظر الأمر بالنفخ فى أية لحظة .

---

(١) زرقا : قيل معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال ، أو عمياً ، أو عطاشاً .

روى مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ** » .

روى الإمام أحمد عن ابن عمرو قال : قال أعرابى : يا رسول الله ما الصور ؟ قال : « **قرن ينفخ فيه** » .

ونتساءل كالمعتاد .. مجرد سؤال ! متى خلق الصور ؟ أجيبك : لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض خلق الصور .. وهو قرن عظيم .. الدائرة منه بقدر السموات والأرض .. لما خلقه عز وجل أعطاه لإسرافيل .. فهو واضعه على فيه .. شاخصاً بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما أطرف صاحب الصور منذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دُرِّيَّان[1]** » .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « **كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر** » .

قال المسلمون : يا رسول الله فما تقول ؟ قال : « **قولوا حسبنا**

---

(١) كوكبان دريان : دُرِّى منسوب إلى الدر فى لمعانه وشدة توهجه وتوقده . ودريان مثنى درى .

الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » . اقرأ واتّعظ .. اتّعظ من أحاديث النبى الكريم ﷺ .. هذا حديث شريف قاله منذ مئات السنين .. كان الرسول ﷺ حذراً .. مشفقًا منذ ذلك الحين هو وأصحابه من أهوال ذاك اليوم العصيب .. وها أنا أتوجه إليك عبر قرون أخرى قادمة لايدرى مداها إلا الله ..

صدقنى أيها الإنسان .. إنسان آخر آخر الزمان : عليك أنت تقوم الساعة .. إلهى ! لمن أتحدث ! إنى أتعجب من أمرى وأضحك من نفسى حين أذكر الحديث الشريف الذى رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : **« من أشراط الساعة أن تغرب العقول ، وتنقص الأحلام »** .

إليك أنت إنسان آخر آخر الزمان أقول ! أنت لا تسمع ولاتستجيب .. أنت حر !

* * *

البعث

اعلم أن الله سبحانه وتعالى سيعيد الأجسام فى يوم القيامة كما كانت عليه فى الدنيا ثم تتصل كل روح بجسدها فيحيا العبد ويُقدم للحساب والجزاء ، وهذا ما يقال له : البعث والنشر والإعادة .

وقد أجمع أهل الملل والأديان السماوية على إثبات البعث ، وجاء به القرآن الكريم صراحة فى أكثر من آية ، كما وردت به السنة الصحيحة فى أكثر من حديث ، وعلى هذا فمنكر البعث كافر والعياذ بالله .. والآن نسوق إليك طائفة من آيات الله تدل على ذلك :

قال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[التغابن : ٧] .

وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

وقال جلَّ شأنه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس] .

وقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾ [المؤمنون]

ومن السنة ما رُوى أن أُبى بن خلف الجمحى على أصح الأقوال خاصم النبى ﷺ فى أمر البعث والمعاد ، وأتاه بعظم قد رم وبلى فقبضه وفتته بيده وقال : يا محمد أترى أن الله يحيى هذا بعد

ما رمَّ وبَلِىَ ؟ فقال ﷺ : « **نعم ويبعثك ويدخلك النار** » .

وقد اختلف العلماء فى الإعادة : هل هى عن عدم ، أو عن تفريق فذهب إلى الأول أكثر علماء الكلام وقالوا : إن الله يعدم الذوات والأجزاء كلها ثم يعيدها بعد ذلك ، وعرفوا البعث بأنه : إحياء الله الموتى فى قبورهم ، وإخراجهم منها بعد جمع أجزائهم الأصلية المعدومة التى من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره بأعيانها وأعراضها ورد أرواحها إليها .

فعلى هذا التعريف ، وعلى هذا المذهب يكون المعاد هو الجسم الأول بعينه وذاته لا بمثله ، وإلا لزم أن يكون المثاب أو المعذب غير الجسم الذى أطاع أو عصى وهو باطل بالإجماع ، وتكون الإعادة بعد ذهاب العين والأثر جميعاً .

ويمكن الاستدلال له بقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء :١٠٤] ، فقد بيَّن سبحانه أن الإعادة تكون وفق الابتداء ، ولما كان الابتداء عن عدم فتكون الإعادة كذلك ، ولايسمى الإيجاد ثانيًا إعادة إلا إذا تقدمه عدم محض (أى: خالص) .

وذهب إلى الثانى وهو أن الإعادة عن تفريق جماعة من المعتزلة ومن وافقهم وقالوا فى تعريف البعث : (إنه إحياء الله الموتى فى قبورهم ، وإخراجهم منها بعد جمع أجزائهم الأصلية المتفرقة التى من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره بأعيانها وأعراضها ورد أرواحها إليها) .

واستدلوا لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٦٠] .

وهذا بخلاف أجسام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنها لاتفنى ولا تبلى ، وكذلك الحكم فى أجسام غيرهم ممن لا تأكل الأرض أجسامهم ، كالشهداء الذين قتلوا فى سبيل الحق والواجب ، وجعلوا كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وكالمؤذنين الذين احتسبوا آذانهم لله عز وجل ، وادخروا ثواب ذلك عند الله لا لأجرة يأخذونها على آذانهم من الغير .

وأول من تنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ فهو أول من يبعث من قبره الشريف وأول وارد الحشر، وأول من يمرُّ على الصراط ، كما أنه أول من يدخل الجنة .

هذا ويكون البعث والحشر (وهو جمع الناس وغيرهم فى المحشر والموقف الأعظم) لمن يجازى خيراً أو شراً ، كالإنس والجن والملائكة ، ولمن لا يجازى كالبهائم ونحوها للقصاص من المعتدى عليها تحقيقاً للعدل الإلهى .

أخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

« لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء » .

قال مجاهد بن جبير التابعى : تقاد المنقورة من الناقرة ،

والمركوضة من الراكضة ، والجلحاء (التى لا قرون لها) من ذات القرنين ، والناس ينظرون ثم يقال : « كونى تراباً لا جنة ولا ناراً » : أى : بعد القصاص فى المحشر تصير البهائم ونحوها ممن لا يجازى تراباً .

وأما السِّقْط (بكسر السين وسكون القاف) فإن ألقى بعد نفخ الروح فيه بعث وحشر وصار كأهل الجنة فى الجمال والسن وغير ذلك وإن ألقى قبل نفخ الروح فيه فإنه لا يبعث ولا يحشر وهذا ماذهب إليه المحققون من العلماء وصححه النووى واختاره ، لأن الأدلة تشهد له ، وذهبت طائفة منهم الإمام الغزالى وجماعة إلى أنه لا يبعث ولا يحشر إلا من يجازى لعدم تكليف البهائم ونحوها ولأنها ليست أهلاً للكرامة قال العلامة الآلوسى فى تفسيره لسورة التكوير ، وإلى هذا القول أميل ، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول لأن لهم ما يصلح مستنداً فى الجملة ، وأنا شخصيًا أرى هذا الرأى وأستريح له .

شبه المنكرين للبعث والرد عليها :

تمسك المنكرون للبعث بشبه واهية ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق] .

فهؤلاء الكفار قد استبعدوا إعادتهم ورجوعهم أحياء مرة أخرى بعد أن صاروا تراباً وعظاماً وتعجبوا من ذلك وقالوا : إن هذا لشئ عجيب ، فردَّ الله عليهم بقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق ٤] .

فبيّن لهم أنه عالم بأجزائهم ، وما تنقص الأرض منهم ، وقادر على جمع أجزائهم وإعادتهم .

وقال الفلاسفة : لو أكل إنسان إنساناً بحيث صار المأكول جزءاً من الآكل ، فتلك الأجزاء يستحيل أن تعاد فيهما معًا كما يستحيل أن تعاد فى أحدهما دون الآخر ..

والجواب : هو أن المعاد الأجزاء الأصلية من ابتداء الخلق ، ولعل الله يحفظها من أن تصير جزءاً أصلياً لبدن آخر ، وأمًا غيرها فهى فضلات فى الأكل لا اعتبار لها .

وقالوا أيضًا : البعث نوع من التناسخ المحال ، لأن الجسم المعاد ليس هو الأول ، وهذا عين التناسخ .

والجواب : إن المعاد يكون تناسخًا لو لم يكن الجسم الثانى مخلوقًا من الأجزاء الأصلية للجسم الأول ، فهو هو ولم تعد الروح إلا للجسم الذى كانت فيه ، وتناسخ الأرواح هو : انتقال الروح من بدنها بعد الموت إلى أبدان أخرى مختلفة ، فالبعث إذًا ليس من تناسخ الأرواح وهو المطلوب .

وأكتفى بهذه الشبه التى ذكرتها والرد عليها ، ولا داعى لذكر باقيها .

يوم القيامة رأى العين

أخرج الإمام أحمد والترمذى والحاكم عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : إذا الشمس كورت - وإذا السماء انفطرت - وإذا السماء انشقت » .

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [النمل : ٨٧] .

وقد أشار النبى عليه الصلاة والسلام إلى أن المستثنى من الفزع فى الآية الكريمة : إنما هم الشهداء على أساس أنهم أحياء عند ربهم يرزقون .. فوقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه لأنه عذاب يبعثه فقط على شرار خلقه .

هيا معى ننطلق إلى الملكوت الأعلى .. تخيل نفسك كأنك بجوار الشهداء .. ترى وتسمع كل الأهوال بلا خوف أو فزع .. اتفقنا ؟ هيا بنا :

هذى أرض الشام .. يعيش عليها أهلوها .. يعيثون فساداً فى فساد .. وتلك سائر بقاع الأرض فى كل مكان .. وقد امتلأت ظلماً وطغياناً .. سئمت الأرض .. تعبت وضاقت بمن عليها ؛ فاشتعلت ناراً . طردتهم وساقت كل المخلوقات .. جمعتهم ببلاد الشام .. فازدحمت الشام بجميع المخلوقات وفرغت سائر بقاع الأرض فى كل مكان .. تعبت المخلوقات من هول الحشر .. بدأت تفكر فى الاستقرار والعودة إلى الشر والطغيان .

أفٍ لذلك العالم ! أيعجبك هذا الحال ! لم أعد أطيق هؤلاء البشر ، ولا تلك المخلوقات ! ألست كذلك ! بقعة الأرض محدودة والزحام عليها شديد .. تتكدس عليها كل المخلوقات وتموج في بعضها .. هاك إبليس ظاهراً .. وتلك شياطين الجن .. يأمرها أن تسير في الطرقات بين المخلوقات .. وتضيع الأنساب لا يميز الإنسان بين أمه أو أخيه أو زوجته أو حتى بنيه .. ولا يفكر في مجرد السؤال عنهم أو التعرف عليهم في وسط الموجودين .. وقد يلقاهم ويتعامل معهم دون أن يعرفهم .

إني أرى إنساناً أو إنسانة لا أتبين بالتحديد .. المهم أنه مجهد وتعبان .. يريد أن ينام فلا يجد له مكاناً .. ها هو ذا وقد لمح آخر مكوماً هناك على الرصيف .. إنه يحاول الوصول إليه في وسط الزحام . وصل .. وهجم عليه ليفسح له المكان .. تشاجر معه .. آه ! لقد قتله وتكوم مكانه .. ما هـذا ! ثعبان ! الثعبان ينقض عليه .. يريد هو أيضًا أن يفسح لنفسه المكان .. الثعبان قتل الإنسان .. فالتفت حوله الوحوش .. واجتمعت فوقه الحشرات .. الكل يأكل بشراهة .. وبسرعة .. انتفى أثر الإنسان !

وذاك إنسان آخر جوعان أو إنسانة .. ها هو يتوجه لأحد تجار الشام ليطلب الطعام .. لكن التاجر يطلب الثمن .. يبحث الإنسان فلا يجد معه إلا بضع نقود يعطيها للتاجر ، فيرفض ويقول : ارتفعت الأسعار ، يصرخ الإنسان : أنا جوعان وأموالي أكلتها النار ، أريد ولو قطعة خبز .. رفض التاجر واستغل الموقف ، وقال : أسعار اليوم ليست كأسعار الأمس .

ثار الإنسان .. هجم عليه وقتله ، أخذ اللقمة ، اقتربت من فمه . لكن الذباب أيضا جوعان يتطاير فوق اللقمة والطائر يحوم حول المكان .. ها .. خطف اللقمة وطارت اللقمة يا إنسان ! حاسب .. حاسب يا إنسان .. الأسد يئن من الجوع ، انقض على الإنسان .. مزقه .. أكله .. وضاع الإنسان .. انظر !

هؤلاء الناس أكلت النار بعض ثيابهم .. يبحثون عن نقود فلايجدون .. يهجمون على محل ، يقتلون من فيه ويسطون عليه .. ومن ورائهم سائر المخلوقات .. وتعيش يا إنسان فى وسط الحيوانات والوحوش والجن والحشرات والطيور .. تأكل معهم يامسكين وتنام .. بل ويشاركونك كل شىء فى حياتك .. لا .. لست أعنيك أنت يا إنسان اليوم إنما أعنى إنسان آخر آخر الزمان .. فأنت كما اتفقنا - معى بجوار الشهداء نتخيل ونرى سوياً ما يحدث فى ذاك الزمان كما قلت لك مسبقاً ولا تأخذ أية كلمة عليك بعد ذلك فلن أكرر وأشرح هذا بعد الآن .. ولنعد إلى موضوعنا :

ويحوم النمل والبعوض وسائر الحشرات حول باقى المخلوقات .. تهجم عليهم جماعات جماعات .. فيضيق الإنسان وتنبح الكلاب وتعوى الذئاب ، كذلك القردة والخنازير وجميع الحيوانات والوحوش والإبل والبعير والطيور كلها تموج فى بعضها وتتحول إلى وحوش كاسرة .. تتشاجر وتفترس بعضها بعضاً ، الكل يريد أن يعيش ولو على حساب الآخرين .

والجن مسرور وفرحان .. ينتشر ظاهراً وسط الزحام .. يشعلها ناراً بين المخلوقات .. ثم يتأملهم وهو يضحك فى سعادة وهناء !

والرب .. الرب على عرشه فوق كل العباد .. يراقب أفعال جميع المخلوقات .. لا يغفل لحظة ولا تفوته هفوة .. اشتد غضبه وزاد سخطه .

وإسرافيل مازال ممسكاً بالصور وواضعه على فيه .. شاخصاً بصره إلى العرش .. ينتظر الإشارة من رب العالمين بالنفخ فى أية لحظة ، أخيراً أتى أمر الله .. أمر إسرافيل بالنفخ فى الصور .. فنفخ النفخة الأولى ، وإذا بصوت قوى شديد يدوى فى كل مكان .. وإذا بالفزع يسود الوجود .. وفجأة ! ساد الصمت على وجه الأرض .. توقف القتل والشجار .. فارتفعت يد القاتل عن المقتول .. ونزل النمر عن فريسته .. كش الثعبان .. وتوقفت الحشرات .. ذهلت كل المخلوقات .. حتى اللقمة .. اللقمة لم تبتلع فى فم الإنسان أو غيره من المخلوقات .. الكل توقف وساد الوجوم .. كل ينظر حوله ويرفع رأسه إلى السماء ليبحث عن مصدر الصوت الرهيب .. ويتساءل فى صمت وذهول .. ما هذا الصوت ؟! ما هذا الصوت ؟!

حانت اللحظة الأخيرة .. لحظة الاحتضار .. ها هى ذى الدنيا بأسرها تحتضر وهذى الجبال التى تنتشر من حول زحام المخلوقات وفى وسطهم وفى سائر بقاع الأرض .. الجبال الراسية الشامخة .. تهتز .. تقتلع تماما من جذورها .. ترتفع عن الأرض وتسير عبر الزحام تخالها جامدة لكنها تمر مرّ السحاب .. تنفجر قوية مدوية فى كل مكان ، لقد نسفها رب العالمين نسفًا فصارت

هباءً منبثاً .. واستوت الأرض فلم يعد فيها جبال ولا اعوجاج لكنها ترتج ، تهتز وترتجف .. زلازل .. زلازل رهيبة .. الأرض تميد بأهلها وكأنها سفينة فى وسط بحر هائج تضربها الأمواج من كل اتجاه .. تضطرب بهم وتكفأهم على وجوههم فوق بعضهم فتعلو الأصوات ، تعلو ويعلو الصراخ والفزع من شدة الخوف والرعب ، وتضع كل ذات حمل حملها .. ويشيب الإنسان .. وتتساقط بعض المخلوقات صرعى من هول الفزع .

بينما هم على هذى الحال إذا بظلام دامس يعم الوجود .. ماهذا ! .. لقد انطفأ نور الشمس وكذلك القمر وسائر الكواكب .. لم يعد هناك ليل أو نهار .. الدنيا ظلام فى ظلام ، ماجت المخلوقات فى بعضها ، ضاعت منها الوحشية وائتلفت .. ففزع الجن إلى الإنس وائتنس به وكذلك سائر المخلوقات .

رباه ! ما هذا ! يالهول انتقامك ! سبحانك يا الله .. يا قادر يا جبار ! السماء أيضًا تحتضر ! تتشقق ! تتكور منها الشمس وتظل تهوى ! تهوى عبر بعد سحيق ! ويقع القمر ! وسائر الكواكب حتى النجوم التى لا تقع فى مجموعتنا الشمسية تتناثر فى كل اتجاه وتتساقط ، تصيب بعض المخلوقات ، وتصرع آخرين ، وتشتعل النيران وينتشر الدخان وعلى ضوء النيران تشهد المخلوقات كل الأهوال .

يفزع الإنس إلى الجن ، والجن إلى الإنس .. الكل يتساءل فى حيرة وقلق .. ما الحل ؟ ماذا عسانا أن نفعل ؟ وأخيراً اقترح الجن

على الإنس أن ينطلقوا إلى ماء البحر علّهم يجدون سبيلاً للخلاص.. والأرض ما زالت تميل بهم فى كل اتجاه فانطلق الجن على رأسِهم إبليس وتبعهم الإنس ، منهم من يتعثر فى الطريق ومنهم مَنْ تكفأه الأرض على وجهه فيسير زاحفاً ، ومنهم من يحاول الاستناد على أخيه حتى يصلوا إلى ماء البحر بسلام .. وهاهم وصلوا فى النهاية إلى ماء البحر المنشود .. وإذا بالمفاجأة الكبرى .. مفاجأة لم تخطر لهم على بال .

إلهى ! حتى البحار أيضاً تحتضر ! تفجرت كل الحواجز التى بينها .. لقد صارت البحار بحراً واحداً هائلاً عظيماً مملوءاً بالمياه عن آخره .

وقف الجميع أمام البحر .. وقفوا مشدوهين فى ذهول الحيارى المقهورين .. ياللهول ! النجوم والكواكب تتساقط أغلبها فى البحر ، والقمر أيضاً .. ها هى ذى الشمس وقد وقعت هى الأخرى من على بعدها السحيق .. وانطلقت البراكين مدوية هائلة من قاع البحر .. وانفجرت ذرات الماء .. انفجاراً هائلاً مروعاً .. مدوياً فى كل مكان .. واشتعلت النار .. نار شديدة لا مثيل لها فى الوجود .. اشتعلت من تحت قعر البحر .. من أعماق أعماق الأرض .. انتشرت .. ظلت تعلو وتعلو .. حتى غدت ناراً ذات عمق سحيق .. سحيق ، وضاع الأمل الأخير ، وقف الإنس مع الجن حيارى مقهورين .. الجميع يتساءل فى ذهول ! أهذا ماء البحر ؟ أهذا الماء الذى جئنا نلتمس منه الخلاص ! أهكذا يسجر البحر ! يتحول ماؤه إلى نار تتأجج ! فظيع ما نرى ! فظيع !

زلزال الأرض ما زال يشتد ويشتد .. وصوت النفخ فى الصور ما زال دائماً لم يفتر بعد .. والنار من أمام الجميع تشتعل بهولها المريع .

وها هو إبليس .. يجرى فى كل اتجاه تميد به الأرض .. يتعثر تارة ويزحف أخرى والنار من أمامه تتأجج لم ير لها مثيل فى عالم الدنيا .. فتعود به الذكرى إلى الماضى البعيد يوم تحدى رب العالمين ، يوم توعده الحكيم القهار بنار الجحيم .. انهار إبليس .. اشتعلت نيران الحسرة والندم فى أعماق أعماقه .. ها هو يصرخ ثائراً : لا .. لا يارب العالمين .

لقد خر إبليس ساجداً ! متوسلاً متذللاً ! إنه يبكى ويصرخ ! ينادى ويقول : ربى ! مرنى أن أسجد لمن شئت .

ذهلت الشياطين .. واجتمعوا حوله يتساءلون : يا سيدنا : إلى من تفزع ؟! التفت إليهم إبليس منهاراً باكياً : إلى رب العالمين .. أتسمعون ! إلى رب العالمين الذى أنظرنى إلى يوم القيامة .. وهذا هو اليوم المعلوم .

الجميع يرددون فى ذهول (الإنس منهم والجان) : اليوم المعلوم ! رب العالمين ! إذن : الله موجود ! العالم الآخر حق ! البعث والجزاء أيضاً حق ! وما نراه اليوم من أهوال إنما هى بعض أهوال يوم القيامة ! ونحن ! نحن اليوم فى يوم القيامة ؟! مع كل تلك الأهوال مازلنا فى أول يوم القيامة ؟! فما مصيرنا بعد ذلك ؟! أما من مفر يخلصنا من ذلك الجحيم المحتوم ؟! أحقاً جاء وعد الله

؟! أحقاً انتهى كل شيء ؟! الموت علينا محتوم ومصيرنا ليس إلا الجحيم والعذاب الأبدى ! ضيعت نفسك يا إبليس .. ضيعت نفسك يا ملعون وضيعتنا معك .

وإذا بصوت ينادى ويقول : يأيها الناس : ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل :١٠] وينهار الجميع .. تملأ الحسرة والندم أعماق كل الموجودين .. والأرض ما زالت تميد بهم ، يتعثرون ويعتدلون ، والصوت ما زال مدوياً فى أرجاء المكان .. وتتعالى الصيحات : لا .. لا يا رب .. أعطنى فرصة .. فرصة أخيرة .. لا أريد الموت .. إنى أريد الحياة .. أود لو أعيش .. لو عادت إلىّ الحياة من جديد سأفعل كل ما تأمرنى به .. أى شيء .. مرْنى يا ربى بما تريد ولو ألقى بنفسى فى أحضان تلك النيران المتأججة .. أود لو أموت وأبعث إلى النعيم .. لا أريد الجحيم الأبدى .. لا أريده .. أخشاه وأمقته .. أرجوك يا إلهى : تقبّل دعوات عبد ذليل يتوسل إليك .. فرصة ! فرصة أخيرة يا أرحم الراحمين ، أنا لا أحتمل النار .. لا أحتمل عذابها .. ارحمنى .. ارحمنى برحمتك يا إلهى يا عظيم .. لقد آمنت بك .. أجل .. أنت ربى بل ورب العالمين .

وإبليس مازال ساجداً يصلى ويدعو يصرخ باكياً منهاراً : مرنى يا رب أن أسجد لمن شئت .. مرنى أن أسجد لمن شئت ، وإذا بالنفخة الثانية صوتها يدوى فى كل مكان .. يعلو ويعلو .. إنها نفخة الصعق ، وإذا بالسماء تتصدع كلها صدعة واحدة إلى السماء

السابعة .. إنها تهوى على الأرض ، والأرض أيضاً .. ها هى تتصدع صدعة واحدة وتنشق إلى سابع أرض .

إلهى ! ما هذا ! الملائكة تتطاير من السماء بأشكال مخيفة مروعة .. ترفرف بأجنحتها .. وتصل إلى الأرض ، إنها تنزع أرواح المخلوقات .. تنزعها نزعاً مهيناً مؤلماً ، الجميع يتألم ، الكل يصرع ويموت .. وانطبقت السماء على الأرض واحتضرت الدنيا وانتهى كل شيء .. وماتت جميع المخلوقات .. صعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله .

هكذا انتهى الصراع .. الصراع بين إبليس وآدم .. مُحى الشر وأُبيد الفساد .. ومات إبليس .. وانتهت الأسطورة .. أسطورة خلافة الإنسان على الأرض .. مات الإنسان .. وضاعت الخلافة .. واحتضرت الأرض .. مُحى العالم بأسره وصعق الوجود وفنى فأمسى لا وجود .

وبقى عالم الملكوت الأعلى .. فجاء ملك الموت إلى الجبار .

قال : يا رب ! مات أهل السموات والأرض إلا من شئت .

فيقول الله وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟

يجيب ملك الموت : بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقى جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا .

فيقول الله عز وجل : فليمت جبريل وميكائيل .

يذهل العرش .. ينطقه الله تعالى .. فيتساءل : يارب ، يموت جبريل وميكائيل ؟!

فيقول الرب : اسكت ! فإنى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى .

فيموتان ، ثم يأتى ملك الموت إلى المهيمن الجبار فيقول :

قد مات جبريل وميكائيل ، ولم يبق إلا أنت الحى الذى لا تموت ، وبقى حملة عرشك ، وبقيت أنا . فيقول الخبير الحكيم : فليمت حملة عرشى .

فيموتون ، ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتى ملك الموت إلى الملك القدوس ويقول : يارب قد مات حملة عرشك .

فيقول الله سبحانه وتعالى وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟

يجيب ملك الموت : يارب بقيت أنت الحى القيوم الذى لا تموت ، وبقيت أنا .

فيقول الله : أنت خلق من خلقى ، خلقتك لما أردت فمت . فيموت .

هكذا يفنى العالم كله .. يفنيه الله الذى لا يموت أبداً .. الذى كان آخراً كما كان أولاً ، فلم يبق إلا هو .. الله الذى أوجد الوجود ثم أفناه وأعاده كما كان .. الله الواحد القهار الأحد .. الفرد الصمد .. الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فيطوى السموات والأرض بكل ما حوتا من مخلوقات فانية ميتة لا حياة فيها كطى السجل للكتاب .. فيقبض الأرض جميعا .. والسموات

مطويات بيمينه سبحانه وتعالى .. ويتجلى بعظمته وجبروته ، ينادى بمنتهى القوة والعظمة الإلهية الجبارة .. ينادى الملك القدوس المهيمن ويقول : أين ملوك الأرض ! أين الجبارون ! أين المتكبرون ! لمن الملك اليوم ؟!

لا أحد يرد .. فلم يبق إلا وجهه ذو الجلال والإكرام .. والكون كله فانٍ بين يديه ، فى حالة سكون .. سكون .

ثم يكرر سبحانه وتعالى ويقول مرة أخرى : لمن الملك اليوم ؟!

فما من سميع ولا من مجيب ، ولآخر مرة يقولها عز وجل ثم يجيب بنفسه فيقول : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] صدق الله العظيم .

النفخ فى الصُّور

ورد النفخ فى الصور صراحة فى كتاب الله العزيز فى عشر آيات ، كما أحصيتها من المصحف العثمانى ، وإليك بيانها :

١ ـ قال الله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام :٧٣] .

٢ ـ قال الله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف : ٩٩] .

٣ ـ قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : ١٠٢] .

٤ ـ قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] .

٥ ـ قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : ٨٧] .

٦ ـ قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : ٥١] .

٧ ـ قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] .

٨ ـ قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ [ق : ٢٠] .

٩ ـ قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) ﴾ [الحاقة] .

١٠ ـ قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ [النبأ : ١٨] .

كما ورد فى السنة النبوية ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم (أى : أفرح وأسرّ) وصاحب الصور قد التقم الصور ينتظر متى يؤمر أن ينفخ ؟ قالوا : وماذا نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل» أخرجه أحمد والترمذى وابن حبان عن أبى سعيد ، وأخرجه أحمد والحاكم أيضاً عن ابن عباس ، وأخرجه غيرهم عن زيد بن أرقم .

والصُّوْر (بضم الصاد وسكون الواو) هو : قرن عظيم من نور كهيئة البوق فيه ثقوب كثيرة بعدد أرواح الخلائق كلها ، وقيل فى وصفه غير هذا .. وقيل : إن النفخ فى الصور تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ فى البوق ، ولكن ورود الصور فى الأحاديث مع ذكر بعض أوصافه يبعد هذا القول ، وأن النفخ والصور حقيقتان لا يراد بهما المجاز ، ونحن نؤمن بالنفخ فى الصور ونفوض الأمر فيه لله وحده عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير .

والنافخ فيه إسرافيل ، ويكون جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره والنفخ فى الصور مرتان لا ثلاث على الصحيح ، النفخة الأولى وتسمى : نفخة الصعق والفناء ، وبها يموت من بقى من الخلق على وجه الأرض والسماء ، ويغشى على من كان ميتاً من قبل لكنه حى فى قبره كالأنبياء والشهداء فيغشى عليهم بالنفخة الأولى حتى على نبينا ﷺ ويبقى رؤساء الملائكة الأربعة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وقيل : معهم حملة العرش الثمانية أحياء لأنهم جميعاً من المستثنى فى قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر : ٦٨] .

وبعد هذه النفخة يموت هؤلاء المذكورون وآخرهم موتاً سيدنا عزرائيل على الصحيح ، ويقبض روح نفسه ، وقيل : القابض له هو الله عز وجل ؛ ثم يمكث الخلائق على هذه الحالة أربعين سنة ، وهى المدة التى تكون بين نفخة الصعق ونفخة البعث والإحياء ، وقبيل انتهاء تلك المدة يرسل الله مطراً غزيراً خاثراً (أى : ثخيناً) من تحت العرش يشبه منى الرجال يقال له : ماء الحيوان : (أى الحياة) فينبت الله به الأجساد والأبدان كما ينبت البقل حتى إذا تكاملت هذه الأجسام ، وانتهت مدة الأربعين سنة أحيا الله جبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش ، وأمر إسرافيل بأخذ الصور فيأخذه فيدعو الله الأرواح فتجتمع فيه ثم يأمره بالنفخ فينفخ ، يقال لهذه النفخة: نفخة البعث وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] ، وينادى

قائماً على صخرة بيت المقدس قائلاً : (أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة(١) ، والأعضاء المتمزقة ، والشعور المتفرقة . إن الله المصور الخالق يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء فيجتمعن ، وتخرج الأرواح من ثقوب الصور كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فتدخل أجسادها فلا تخطئ روح جسدها ، وتمشى فيه كالسم فى اللديغ (ويقال : إن أرواح المسلمين تتوهج نوراً ، وأرواح غيرهم مظلمة) فيحيا من مات ، ويفيق من غشى عليه كالأنبياء والشهداء فتنشق الأرض عن الجميع ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٢) (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) ﴾ [ق] .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ (المعارج : ٤٣) ، وقوله ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ (٨) ﴾ [القمر] أى مسرعين إلى إجابة نداء إسرافيل عليه السلام إلى أرض المحشر ، والموقف الأعظم للعرض على رب العالمين ، وللحساب والجزاء فى يوم الدين : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار : ١٩] .

---

(١) الأوصال : جمع وصل (بضم الواو وكسرها) كل عضو على حده .

(٢) هو صخرة بيت المقدس وهى أقرب مكان من الأرض إلى السماء كما قيل فى كتب التفسير .

أحداث يوم القيامة

سعى الناس إلى محشرهم

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ(١) وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾ [طه :١٠٨] .

وقال الله جل ثناؤه: ﴿ وَعَنَتِ (٢) الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢) ﴾(٣) [طه] .

وقال الله عز وجل : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ(٤) يُوفِضُونَ (٥)(٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤) ﴾ [المعارج] .

أى : أنهم يسعون إلى محشرهم فى سكون وخشوع لا تسمع منهم إلا صوت الأقدام وإلا الهمس .

ثم يقبض الجبار سمواته بيده اليمنى وأرضيه بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟

---

(١) أى : لا يميلون عنه .
(٢) أى : ذلت واستسلمت .
(٣) أى : نقصاً .
(٤) أى : كما يسعون فى الدنيا إلى أصنامهم مسرعين .
(٥) أى : يبتدرون .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] أى : كطى السجل لما هو مكتوب فيه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » متفق عليه(١) .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء(٢) كقرصة النقى(٣) ليس فيها علم لأحد » رواه مسلم(٤) .

يحشر الناس يومئذ مشاة حفاة عراة غرلاً :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً(٥) » قلت : يا رسول الله، النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » متفق عليه(٦) .

---

(١) الفتح : ١٤/١٦٠ ، ومسلم ٢١٤٨ .
(٢) عفراء : أى : بيضاء إلى حمرة ، ليست ناصعة البياض .
(٣) قرصة النقى : أى : قرص الدقيق النقى من الغش والنخال .
(٤) مسلم ٢١٥٠ .
(٥) غرلاً : أى : غير مختونين .
(٦) الفتح : ١٤/١٧٦ ، ومسلم ٢١٩٤ .

يُحشر الكفار على وجوههم :

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا(١) وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [طه].

وقال الله تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾

[الإسراء: ٩٧] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يَعْرَقُ الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعًا ويلْجمهم حتى يبلُغ آذانهم » متفق عليه(٢) .

وعن المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « **تُدْنَى الشمسُ يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل** » قال سليم بن عامر : فوالله ما أدرى ما يعنى بالميل ؟ أمسافة الأرض أم الميل الذى تُكْتحل به العين . قال : « **فيكونُ الناسُ على قدْرِ أعمالهم فى العَرقِ ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من**

---

(١) أى : لا طمأنينة ولا انشراح بل صدره ضيق ، وإن أوتى من كل شىء لما يشعر به من الخوف من البعث والحساب هذا وهو به مرتاب شاك متردد بين التصديق والتكذيب وهذا حق العذاب .

(٢) الفتح : ١٤/١٨٥ ، ومسلم ٢١٩٦.

يكون إلى حقْوَيْه[1] ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا[2] ، رواه مسلم[3] .

فتفكر يا عبد الله فى الخلائق وذلّهم وانكسارهم فى ذلك اليوم الطويل خوفاً وانتظاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة ، فكيف بك يا عبد الله فى ذلك اليوم وقد لفظك القبر بعد طول بلاء فنظرت فى عملك الذى قدمت فلم تجد إلا ريبة فى البعث وشرباً للخمر ولهواً وزناً كثيراً ولعباً للقمار ووقوعاً فى أعراض الناس وغيبة ونميمة وأكل أموالٍ بالباطل وموالاةً للملحدين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر واستهزاء ومحاربة للمؤمنين المتمسكين بالكتاب والسنة ، ألا فاتّق الله ربك وارفق بنفسك .

الإتيان يومئذ بجهنم :

قال الله جل ذكره : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) ﴾ [الفجر] .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يؤتَى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام[4] مع كل**

---

(١) الحقو : أى : الخصر ومعقد الإزار من الجنب .

(٢) أى : يصل إلى أفواههم .

(٣) مسلم ٢١٩٦ .

(٤) الزمام : ما زُمّ به والجمع : أزمة وهى الحبال .

زِمامٍ سبعون ألف ملكٍ يجُرُّونها » رواه مسلم(1) .

الذين يُظِلُّهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظلّ إلا ظله :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى(2) اليوم أظلهم فى ظل(3) يوم لا ظل إلا ظلى »** رواه مسلم(4) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عدْلٌ(5) ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخافُ اللهَ ، ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينُه ، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » متفق عليه(6) .

أول من يُدعى يوم القيامة آدم وإخراج بعث النار :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **أول من يدعى يوم القيامة آدم فتراءى ذُريته(7) فيقال : هذا أبوكم**

---

(1) مسلم ٢١٨٤ .

(2) أى : بعظمتى وطاعتى لا للدنيا .

(3) أى : فى ظل العرش يوم القيامة .

(4) مسلم ١٩٨٨ .

(5) أى : إمام عادل .

(6) الفتح : ٣٥/٤ ، ومسلم ٧١٥ .

(7) أى : تنظر إليه وتتمكن من رؤيته .

آدم فيقول : لبيك وسعديك . فيقول : أَخْرِج بَعْثَ(١) **جهنم من ذريتك . فيقول : يا رب كم أُخْرِج ؟ فيقول : أخرج من كل مائةٍ تسعة وتسعين** ، فقالوا : يا رسول الله إذا أخذ منَّا كل مائة تسعة وتسعون فماذا يبقى منا ؟ قال ﷺ : « **إن أمتى فى الأمم كالشَّعرة البيضاء فى الثور الأسود** » رواه البخارى(٢) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « **يقول الله عز وجل : يا آدم . فيقول : لبيك وسعد يك والخير فى يديك . قال : يقول : أَخْرِج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . قال : فذاك حين يشيب الصغير وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكن عذاب الله شديد** » قال : فاشتدَّ ذلك عليهم . قالوا : يا رسول الله أيُّنا ذلك الرجل ؟ فقال : « **والذى نفسى بيده إنى لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة** » فحمدنا الله وكبَّرنا ، ثم قال : « **والذى نفسى بيده إنى لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة** » **فحمدنا الله وكبرنا** ، ثم قال : « **والذى نفسى بيده إنى لأطمع أن تكونوا شطْرَ**(٣) **أهل الجنة ، إن مثلكم فى الأمم كمثل**

---

(١) البعث : بمعنى المبعوث وأصلها من السرايا التى يبعثها الأمير إلى جهة من الجهات للحرب وغيرها .

(٢) الفتح ١٧٨/١٤ .

(٣) أى : نصف .

الشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود أو كالرقمة[1] فى ذراع الحمار، متفق عليه[2] .

فائدة : تقدم فى الحديث الذى قبله ، أخرج من كل مائة تسعة وتسعين ، ، وفى هذا الحديث ، من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، وقد أجيب عن هذا الإشكال بأجوبة منها حمل حديث أبى سعيد على جميع ذرية آدم فيكون من كل ألف واحد ، وحمل حديث أبى هريرة على من عدا يأجوج ومأجوج فيكون من كل ألف عشرة ، ومنها أن حديث أبى سعيد يتعلق بالخلق أجمعين ، وأن حديث أبى هريرة يتعلق بهذه الأمة خاصة . أما بعث النار فالله أعلم بهم : هل هم كفار أجمعون أم يختلط بهم من عصاة الأمة أحد ؟ العلم عند الله تعالى .

عذاب مانع الزكاة يومئذ :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

وقال الله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا

---

(١) الرقمة : قطعة بيضاء تكون فى باطن الذراع .

(٢) الفتح ١٤/١٧٩ ، ومسلم ٢٠١ .

فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)﴾ [التوبة] .

وعن أبى هريـــرة رضى الله عنه قال : قـــال رســول الله ﷺ : « **ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقَّها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فأُحمى عليها فى نار جهنم فيُكوى بها جنبُهُ وجبينُهُ وظهرُهُ كلما بردت أُعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيُرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار**» قيل : يا رسول الله . فالإبل ؟ قال : « **ولا صاحب إبل لا يؤدى منها حَقَّها ومن حقَّها حَلَبُها يوم وردها(١) إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها بقاع قرقرٍ(٢) أو فَرَمَا كانت لا يفقد منها فصيلاً(٣) واحدًا ، تطؤُهُ بأخفافها وتعضُّه بأفواهها كلما مرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أُخراها(٤) فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيُرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار**» **قيل : يا رسول الله ، فالبقر والغنم ؟ قال : « ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدِّى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها بقاع قرقرٍ لا يفقد**

(١) أى : يوم أوردها الماء .
(٢) قاع قرقر : أى : أرض مستوية واسعة .
(٣) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .
(٤) قال القاضى عياض : قالوا هو تغيير وتصحيف وصوابه ما جاء فى الحديث الآخر « كلما مر عليه أخراها رد عليه أولاها » .

منها شيئاً ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء[1] تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلّما مرّ عليه أولاها رُدّ عليه أُخراها فى يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة وإما إلى النار ، رواه مسلم[2] .

حوضِ النبي ﷺ يوم القيامة :

ويرِد المسلمون حوض النبى ﷺ ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وآنيته كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبداً ، وليردنّ على رسول الله ﷺ الحوض رجالٌ من أُمته يعرفهم بعلامةِ الوضوء غراً محجّلين ثم يطردون عن الحوض لأنهم نكصوا على أعقابهم وغيروا بعده ﷺ وما أكثرهم فى هذا الزمان ، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **تردُ على أُمّتى الحوض وأنا أذودُ[3] الناس عنه كما يذودُ الرجل إبل الرجل عن إبلِه** » قالوا : يا نبى الله أتعرفنا ؟ قال : « **نعم . لكم سيما[4] ليست لأحد غيركم . تردون علىّ غُرًّا مُحجّلين[5] من آثار الوضوء وليُصدّن عنى طائفة منكم فلا**

---

(١) العقصاء : الملتوية القرنين ، والجلحاء : التى لا قرن لها ، والعضباء : التى انكسر قرنها الداخلى .

(٢) مسلم ٦٨٠ .

(٣) أى : أطرد وأدفع .

(٤) أى : علامة .

(٥) الغرة : بياض فى جبهة الفرس ، والتحجيل : بياض فى يديها ورجليها . أى أنهم يأتون يوم القيامة وعلى هذه المواضع نور يعرفون به .

يصلون فأقول : يا رب هؤلاء من أصحابى فيجيبنى مَلَكٌ فيقول : وهل تدرى ما أحدثوا بعدَكَ ، رواه مسلم[1] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ : « **حوضى مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه[2] كنجوم السماء ، من شرب منه فلا يظمأ أبدًا** ، متفق عليه[3] .

طعام أهل الجنة يوم القيامة :

فى هذا اليوم الطويل يكرم الله جل ثناؤه من عباده الذين ارتضى لهم الجنة دارًا ومسكناً ويقلب لهم الأرض خبزةً واحدة فيأكلوا منها حتى يدخلوا الجنة .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « **تكون الأرض يوم القيامة خُبزةً واحدةً يكفأها[4] الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزتهُ فى السفر نُزُلاً[5] لأهل الجنة** ، قال : فأتى رجلٌ من اليهود فقال : بارك الرحمن عليك أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة ؟ قال : « بلى ، قال : تكون الأرض خُبزةً واحدةً ـ كما قال رسول الله ﷺ قال : فنظر

---

(١) مسلم ٢١٧ .

(٢) كيزانه : أى آنيته .

(٣) الفتح ١٤/٢٦٧ ، ومسلم ١٧٩٣ .

(٤) يكفأها : أى : يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوى .

(٥) النُزُل : هو ما يعد للضيف عند نزوله .

إلينا رسول الله ﷺ ثم ضحك حتى بدت نواجذه(١) قال ألا أخبرك بإدامهم(٢) ؟ قال : « بلى » قال : إدامهم بالام(٣) ونون(٤) قالوا : وما هذا ؟ قال : ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما(٥) سبعون ألفاً » متفق عليه(٦) .

شفاعة النبى ﷺ فى إدخال من لا حساب عليه من أمته الجنة :

ثم تقرب الجنة للمؤمنين فلا يستطيعون عنها صبراً ، ويبطئ الرحمن عليهم فى الحساب فينطلقون يلتمسون الأنبياء والمرسلين لعلهم يشفعون ، فإذا بكل رسول منهم يقول : نفسى نفسى اذهبوا إلى فلان حتى يأتوا محمداً ﷺ فيقول : « أنا لها » فيدخل الله جل ذكره بشفاعته من أمته من لا حساب عليه الجنة من أيمن أبوابها .

قال الله عز وجل: ﴿ وَأُزْلِفَتِ(٧) الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : ٣١]

وقال الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [التكوير: ١٣]

وعن أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى

---

(١) النواجذ : جمع ناجذ وهو آخر الأضراس وتطلق أيضاً على الأنياب .
(٢) الأدم : أى : ما يؤكل مع الخبز .
(٣) بالام: لفظة عبرية معناها : ثور .
(٤) النون : أى : الحوت .
(٥) زائدة الكبد : هى القطعة المنفردة المعلقة فى الكبد وهى غاية فى اللذة .
(٦) الفتح : ١٦٢/١٤ ، ومسلم ٢١٥١ .
(٧) أزلفت : أى : قربت .

تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم؟ لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابنى إبراهيم خليل الله ، ... الحديث رواه مسلم[1] .

وقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال: أتى رسول الله ﷺ بلحْم . فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه . فنهس[2] منها نهسة فقال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذاك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد[3] فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر[4] ، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، وما لا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس

---

(١) مسلم ١٨٧ .

(٢) فنهس : بمعنى أخذ بأطراف أسنانه .

(٣) فى صعيد واحد : الصعيد هو الأرض الواسعة المستوية .

(٤) ينفذهم البصر : قال : الكسائى يقال نفذنى بصره إذا بلغنى وجاوزنى ، قال ويقال : أنفذت القوم إذا خرقتهم ومشيت فى وسطهم ، فإن جزتهم حتى تخلفتهم قلت : نفذتهم بغير ألف ، ومعناه : ينفذهم بصر الرحمن تبارك وتعالى حتى يأتى عليهم كلهم وقال صاحب المطالع : معناه أنه يحيط بهم الناظر ، لايخفى عليه منهم شي لاستواء الأرض ، أى : ليس فيها مايستتر به أحد عن الناظرين .

لبعض : ائتوا آدم ، فيأتون آدم ،فيقولون : يا آدم ! أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربى غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح ! أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوت بها على قومى[1] نفسى نفسى ، اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربّك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله

(١) هى قوله عليه السلام الذى ورد فى القرآن الكريم : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً ﴾ [نوح : ٢٦] .

مثله، ولا يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته[1] نفسى ، نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : يا موسى! أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفساً لم أومر

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاثاً » رواه البخارى (٧/ ٢٠٠) وفى رواية أخرى للشيخين « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا ثلاث كذبات : اثنتين منهن فى ذات الله عز وجل ، قوله : « إني سقيم » وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » وقال : « بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : « إن هذا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها ، فقال : من هذه؟ قال : أختى فأتى سارة قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبيني فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ فقال : ادعى الله لى ولا أضرك فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد فقال : ادعى الله لى ولا أضرك فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجبته فقال : إنك لم تأتنى بإنسان إنما أتيتنى بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو قائم يصلى فأوما بيده مهيم - أى : ما الخبر - قالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره وأخدم هاجر » (الفتح ٧/ ٢٠١ ، ومسلم ١٨٤٠) وقال العلماء : إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة لكونها قال قولاً يعتقده السامع كذباً لكنه إذا حقق لم يكن كذبا لأنه من باب المعاريض المحتملة للأمرين وقوله فى سارة (أختى) : أى : أختى فى الإسلام ولذلك نبه النبى ﷺ على أن هذه الكذبات ليست داخلة فى الكذب المذموم .

بقتلها ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى ! أنت رسول الله ، وكلمت الناس فى المهد وكلمةٌ منه(١) ألقاها إلى مريم ، وروحٌ منه(٢) فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر له ذنبًا ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتونى فيقولون: يا محمد ! أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدًا لربى ، ثم يفتح الله على ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلى ثم يُقال : يا محمد ! ارفع رأسك ،سَلْ تُعطهُ ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول: يارب ! أمتى ، أمتى ، فيقال : يا محمد ! أدخل الجنة من أمتك ، من لا حساب عليه ، من الباب الأيمن من أبواب

---

(١) أى : لأنه كان بكلمة (كن)فحسب من غير أب ، بخلاف غيره من بنى آدم عليه وعلى أمه السلام .

(٢) روح منه : أى : مخلوقة من عنده سبحانه وقيل : أى : ليس من أب إنما نفخ فى أمه الروح وإن إضافتها إليه تعالى إضافة تشريف كناقة الله وبيت الله ومثله قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾ [الجاثية : ١٣] أى : أنه سبحانه مكون كل ذلك وموجده وخالقه فتبارك الله رب العالمين .

الجنة وهم شركاء الناس[1] فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذى نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين[2] من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر[3] أو كما بين مكة وبصرى[4] » متفق عليه[5] .

سؤال النبي ﷺ ربَّه عزَّ وجلَّ زيادة عدد الذين يدخلون الجنة من أمته بغير حساب وإجابة الكريم الوهاب :

عن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « وعدنى ربى عز وجل أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفًا بغير حساب ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفًا وثلاث حثيات[6] من حثيات ربى عز وجل » رواه أحمد[7] .

أمة محمد ﷺ أول من يحاسب من بين الأمم :

وفى هذا اليوم يُكْرِم الله جل ثناؤه النبى ﷺ ومن اتبعه

---

(١) أى : أنهم لا يمنعون من سائر الأبواب .
(٢) المِصراعان : جانبا الباب .
(٣) هَجر : من كبريات مدن البحرين .
(٤) بصرى : مدينة معروفة بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل .
(٥) الفتح : ١٠/١٠ ، ومسلم ١٨٤ .
(٦) أى : ثلاث غرفات ، مبالغة فى الكثرة .
(٧) المسند : ٥/٢٦٨ .

من المسلمين فهم وإن كانوا آخر الأمم إلا أن الله سبحانه يجعلهم أول من يُحشر وأول من يُحاسب وأول من يدخل الجنة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة ، بيد(١) أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا اليوم(٢) الذى كتبه الله علينا هداانا الله له ، والناس لنا فيه تبعٌ ، اليهود غداً والنصارى بعد غدٍ» متفق عليه(٣) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « نحن آخر الأمم وأولُ من يُحاسب ، يقال : أين الأمة الأُميّة ونبيها ؟ فنحن الآخِرون الأَولون » رواه ابن ماجه(٤) وصححه الهيثمى .

من صور الحساب :

ثم تفكر يا عبد الله كيف سيكلمك ربك عز وجل فتُسأل عن القليل والكثير والصغير والكبير .

قال الله عز وجل: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : ١] .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ⁽٦⁾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾
[الأعراف : ٦، ٧] .

---

(١) بيد : أى غير .
(٢) أى : الجمعة .
(٣) الفتح : ٣/٤ ، ومسلم ٥٨٥ .
(٤) السنن ١٤٣٤ .

وقال الله عز وجل : ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[١] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ [٢] (٢٥) ﴾ [القيامة]

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « **أما إنكم ستُعْرَضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر** » رواه مسلم[٣] .

كُفر المتبوع بالتابع :

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) ﴾

[مريم].

وقال الله جل ثناؤه: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ[٤] وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) ﴾ [يونس]

وقال الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ

---

(١) باسرة : أى : كالحة عابسة .

(٢) فاقرة : أى : هلاك وشر وعذاب .

(٣) مسلم : ٤٤٠

(٤) أى : فرّقنا بينهم .

أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة] .

فهم يتبرأون من عبادة عابديهم لهم ويقولون : ما كنا نشعر بعبادتكم لنا والله شهيد بيننا وبينكم أنا كنا عن عبادتكم غافلين ، فحينئذ يود المشركون لو عادوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى وعبدوا الله وحده وكانوا مسلمين .

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ [سبأ] .

وهذه صورة أخرى من صور الجدال والتبرؤ بين يدى الواحد القهار ، يقول الأتباع المستضعفون للكهنة والقساوسة والسادة والقادة : أنتم صددتمونا عن الهدى وأورثتمونا العذاب فيقول هؤلاء : نحن أمرناكم برفض الإسلام لله وأمرناكم باتخاذ الأنداد فما كان منكم إلا السمع والطاعة ما محصتم

ولاناقشتم أمرنا ، فما جزاء هؤلاء وأتباعهم إلا السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم وإلا جهنم هم فيها خالدون .

تبرؤ الملائكة من المشركين :

قـال الله عـز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) ﴾ [سبأ] .

تقول الملائكة : سبحانك لا إله إلا أنت نحن عبيدك ونبرأ إليك من عبادتهم لنا ما أمرناهم بذلك ولكنهم كانوا يعبدون الشياطين وبهم يؤمنون .

فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ [سبأ] يوبخهم الله على عبادتهم من لا يملك لهم اليوم دفعاً ولا نفعاً وإعراضهم عن الواحد القهار وصدهم عن سبيله وتكذيب رسله .

عجز الأوثان عن نصر الكافرين :

قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا(١) (٥٢) وَرَأَى

---

(١) أى : مهلكاً ، وقيل : وادٍ فى جهنم .

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا(١) أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾ [الكهف] .

وقال الله عز وجل : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) ﴾

[القصص] .

وقال الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام] .

يخبر الله عز وجل عما يوبّخ به المشركين يوم القيامة : ادعوا الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الحياة الدنيا هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ يقول تعالى : ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ [القصص : ٦٤] أى : تمنوا حينئذ لو كانوا فى الدنيا من المهتدين .

تبرؤ المسيح عليه السلام ممن اتَّخذه وأُمَّه إلهين من دون الواحد القهار :

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ

---

(١) أى : تحققوا أنهم مواقعوها .

مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَاقُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

يقول عيسى عليه السلام : يا رب ما يكون لى أن أقول ماليس من حقى ، يا رب إنه لا يخفى عليك شىء ، يا رب ماأمرتهم إلا بما أرسلتنى به : إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، وكنت شهيداً عليهم مدة مكثى بينهم وأنا يا رب برىء مما أحدثوا من بعدى ، والأمر بيدك يا رب فافعل بهم ما تشاء .

قلت : مع عظم مقام عيسى ابن مريم عليه وعلى أمه السلام عند الله جل ثناؤه إلا أن عظم جرم النصارى وقولهم هذه الكلمة العظيمة من اعتقادهم بأن عيسى ابن الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، أقول إن إخلالهم بالتوحيد جعلهم من شفاعته عليه السلام محرومين ومن رحمته تعالى مطرودين اللهم ياولى الإسلام وأهله ثبتنا على التصديق والتوحيد حتى نلقاك مسلمين .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) ﴾ [المائدة] .

يقول تعالى مجيباً عبده ورسوله عيسى عليه السلام : هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم أى : الموحدين الموقنين المخلصين الخاشعين بما يكون لهم من ثواب فى جنات الخلد التى تجرى من تحتها الأنهار ورضوان من الله أكبر وذلك هو الفوز العظيم.

من فضائل هذه الأمة شـــهادتهم علي الأمم يوم القيامة :

ثم يدعى الرسل والأنبياء وأممهم يوم القيامة فتنكر الأمم تبليغ الرسل فتشهد هذه الأمة على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم أن رسلهم بلغتهم وأنهم كذبوا رسلهم .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم يارب ، فتُسأل أمّته : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ماجاءنا من نذير ، فيقول : من شهودك ؟ فيقول : محمدٌ وأمتهُ ، فيجاءُ بكم فتشهدون** » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] قال : عدلاً ﴿ لتكونوا شهداء علي الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ رواه البخارى(١) .

وعنه أيضاً رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجل والنبى ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيُدعى قومه فيقال لهم : هل بلّغكم هذا ؟**

---

(١) الفتح : ١٧ / ٨١ .

فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلّغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم، فيقال : وما علمُكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) قال : يقول عدلاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [**البقرة : ١٤٣**] رواه أحمد[١] .

مناقشة الحساب :

ثم يحاسب الله عز وجل عباده فمنهم من يناقشه فى الحساب ويستقصى عليه ويوقفه على قبيح أعماله ثم يساق إلى جهنم .

قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩]

وقال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

السؤال يومئذ عن خمس :

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :

« **لا تزول[٢] قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى**

---

(١) المسند : ٥٨/٣ .

(٢) أى : إلى الجنة أو إلى النار .

يُسأل عن خمسٍ : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علِم ، رواه الترمذى[1] وقال الألبانى: إسناده صحيح[2] .

وكذلك اليوم تُنسَى :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليست فى سحابة » ؟ قالوا : لا ، قال : «فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ليس فى سحابة » ؟ قالوا : لا ، قال : « فوالذى نفسى بيده لا تُضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما ، قال فيلقى العبد فيقول : أى فُلْ[3] ألم أكرمك وأُسَوِّدك[4] وأزوجك وأسخّر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع[5] فيقول : بلى ، قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقىَّ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى ، ثم يلقى الثانى فيقول : أى فُلْ ، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟

---

(١) السنن : ٩/٢٥٣ .

(٢) صحيح الجامع ٦/١٤٨ .

(٣) أى : يا فلان .

(٤) أى : أجعلك سيداً على غيرك .

(٥) أى : تأخذ المرباع الذى كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها ، وقيل : معناه : تستريح فلا تشقى ولا تتعب ، والله أعلم .

فيقول : بلى أى رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول: لا ، فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول : يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصُمت وتصدقت ويُثنى بخير ما استطاع فيقول : ههنا إذاً ، قال : ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك ، ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد علىّ؟ فيُختم على فِيْه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه » رواه مسلم[1] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : لو أن لك ما فى الأرض من شىء أكنت تفتدى به ؟ فيقول : نعم، فيقول : أردت منك أهون من هذا وأنت فى صُلب آدم: أن لا تشرك بى شيئًا فأبيت إلاّ أن تُشرك بى » متفق عليه[2] .

من نُوقش الحساب عُذِّب :

عن عائشة أمِّ المؤمنين رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك » فقلت : يارسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ

---

(١) مسلم ٢٢٧٩ .

(٢) الفتح : ٢١٦/١٤ ومسلم ٢١٦٠ .

بيمينه ، (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] ، فَقَالَ رسول الله ﷺ : « إنما ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذب » متفق عليه(١) .

لا تُرجمان بين العبد وربه عز وجل :

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « **ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم من عمله ، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة** » رواه البخارى(٢) .

فتأمل يا عبد الله موقفك غداً بين يدى العزيز القهار فإنها والله ساعة لا يخفى على المؤمنين رهبتها ولا على المتقين شدتها .

أول ما يُحاسب الناس به يومئذ :

أول ما يحاسب العبد عليه يومئذ الصلاة فإن صلحت صلح له سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله .

عن أنس بن حكيم الضبى قال : خاف من زياد أو ابن زياد فأتى المدينة فلقى أبا هريرة قال : فنسبنى فانتسبت له فقال : يافتى ألا أحدثك حديثاً ؟ قال : قلت : بلى رحمك الله ، قال يونس وأحسبه ذكره عن النبى ﷺ قال : « **إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة قال :**

---

(١) الفتح : ١٤/٩١٣ ، ومسلم ٢٢٠٥ .
(٢) الفتح : ١٧/٢٥٥ .

يقول ربنا عز وجل لملائكته وهو أعلم : انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً قال : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فإن كان له تطوع قال : أتموا لعبدى فريضته من تطوعه ، ثم تؤخذ الأعمال على ذلكم » رواه أحمد[1] وأبو داود[2] .

الحساب اليسير :

ويدنى الله عز وجل بعض المؤمنين الذين أسرفوا على أنفسهم فيعرض عليهم أعمالهم ويقررهم ويذكرهم بذنوب عملوها فى الدنيا ثم يعفو عنهم ليعلموا منة الله جل ثناؤه على أهل الإيمان والإسلام .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه[3] ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أى رب ، حتى قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال: سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق** : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[4] [هود : ١٨]

(١) المسند : ٤٢٥/٢ .

(٢) السنن : ٢٠٠/١ .

(٣) أى : يستره .

(٤) الفتح : ٢٢/٦ ، ومسلم ٢١٢٠ .

وقد علمت يا عبد الله أن الله عز وجل يغضب فى هذا اليوم غضباً شديداً - نعوذ بالرحمن من غضبه - كما تقدم فى الصحيحين عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى حين يسألهم الناس الشفاعة وكلهم يقول : « **إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، نفسى نفسى** » فتأمل يا عبد الله حال هؤلاء الرسل والأنبياء الذين رضى الله عنهم وأنعم عليهم وامتدحهم وكيف كان جوابهم « نفسى نفسى » فهابوا الجبار أن يسألوه التخفيف عن أهل الموقف ، فكيف بك ، ثم كيف بك إذا قيل : ليقم فلان ابن فلان ، وكيف بك وقد عرضت سجلات أعمالك ما شذت عنها صغيرة ولا كبيرة ، وكيف بك إن كان الحكم عليك الخلود فى نار جهنم ، فاتق الله .. اتق الله .

أول ما يقضى بين الناس يومئذ فى الدماء :

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء** » متفق عليه(1) .

قال العلماء : ليس هذا الحديث مخالفاً للحديث المتقدم «أول ما يحاسب الناس به من أعمالهم الصلاة » لأن هذا الأخير فيما يتعلق بعبادة الخالق ، أما الآخر فهو فيما يتعلق بمعاملات الخلق .

---

(١) الفتح : ١٤/١٨٧ ، ومسلم ١٣٠٤ .

كيفية القصاص يومئذ :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » رواه البخارى(١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ » قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : « إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» رواه مسلم(٢) .

المــراؤون أول الناس يقضى عليهم يوم القيامة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم

---

(١) الفتح : ٢٦/٦ .

(٢) مسلم ١٩٩٧ .

وعلّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمة فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ، ولكنك تعلّمت العلم ليقال : عالمٌ وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقى فى النار ، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلّه فأُتى به فعرّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ . قال : ما تركتَ من سبيل تحبُ أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت، ولكنك فعلت ليقال : هو جوادٌ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم أُلقى فى النار » رواه مسلم[1] .

المصوّرون من أشد الناس عذاباً يومئذ :

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : دخل عليَّ النبى ﷺ وفى البيت قرام[2] فيه صور ، فتلوّن وجهه[3] ثم تناول الستر فهتكه[4] وقَالت : قال النبى ﷺ : « **من أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يصورون هذه الصُور** » متفق عليه[5] .

---

(١) مسلم ١٥١٤ .

(٢) قرام : ستر .

(٣) تلون : تغير من الغضب .

(٤) هتكه : جذبه حتى أوقعه من موضعه .

(٥) الفتح ١٣/١٣١ ، ومسلم ١٦٦٧ .

يا ابن آدم مرضت فلم تَعُدني :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ، يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تُطعمنى ، قال : يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تُطعمه ؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى؟ يا ابن آدم استسقيتُك فلم تَسقنى ، قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تَسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى» رواه مسلم(١).

صبغة النار وصبغة الجنة :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصْبَغ فى النار صَبْغَةً(٢) ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قطُّ ؟ فيقول : لا والله يا رب ، ويؤتى بأشدّ الناس بؤساً فى الدنيا من أهل الجنة فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فى الجنة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل

---

(١) مسلم ١٩٩٠ .

(٢) أى : يغمس غمسة .

مر بك شدَّة قطُّ ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مرَّ بى بؤس قطُّ ولا رأيت شدة قط ، رواه مسلم[1] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ، فيقول : أى رَبِّ خير منزلٍ ، فيقول : سل وتمنَّ ، فيقول : ما أسأل وأتمنى إلاَّ أنَ تردنى إلى الدنيا فأُقتل فى سبيلك عشر مرات ، لما يرى من فضل الشهادة ، ويُؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أى رب شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منه بطلاع[2] الأرض ذهباً ؟ فيقول : أى ربِّ نعم ، فيقول : كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل ، فيردُّ إلى النار ، رواه أحمد[3] .

قصر يوم القيامة على المؤمنين:

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يوم القيامة على المؤمنين كقَدْرِ ما بين الظهر والعصر ، رواه الحاكم .

---

(١) مسلم ٢١٦٢ .

(٢) أى : قدرها .

(٣) المسند : ٣/٢٠٨ .

صفة حساب رجل ممن شاء الله تعالى أن يغفر له بالرغم من كثرة سيئاته :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله سيخلّص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كلُّ سجلٍ مثل مدِّ البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يا ربِّ ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يا ربِّ ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة فإنَّه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده رسوله ، فيقول : احضر وزنك ، فيقول : يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلاَّت ؟ فقال : إنك لا تُظلم ، قال : فتوضع السجلات فى كفَّة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلاَّت وثقلت البطاقة لا يثقل مع اسم الله شيء** » رواه أحمد[1] والترمذى[2] والحاكم[3] وقال صحيح الإسناد على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

---

(١) المسند : ٢/٢١٣ .

(٢) السنن : ١٠/١٠٧ .

(٣) المستدرك : ١/٦ .

الأمر باتباع كل أمة ما كانت تعبد وسقوط الكفار في النار وكشف الساق، وتحول الخلائق من الموقف، والمرور علي الصراط المستقيم، وشفاعة النبي ﷺ والنبيين والملائكة عليهم السلام والمؤمنين، وشفاعة أرحم الراحمين

ثم ينادى المنادى : ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيسمعون ويطيعون ويتساقطون في جهنم ولا يبقى إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر فيأتيهم الله جل ثناؤه فى صورة غير التى رأوه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم فيستعيذون بالله منه ويقولون : إذا جاء ربنا عرفناه ، فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ، فيقولون : نعم ، الساق ، فيكشف الرحمن عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويستعصى السجود على المنافق والمرائى ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول الله تبارك وتعالى فى صورته الأولى فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، ثم يؤتى بالصراط فيجعل بين ظهرى جهنم ويمر الناس عليه إلى الجنة ، وهو أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، وسرعة الناس عليه على قدر أعمالهم فالمؤمن كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب وعلى الصراط خطاطيف مأمورة ، فمن الناس من ينجو ومنهم من يخدش ومنهم الموبق بعمله فإذا فرغ الله عز وجل من القضاء بين عباده أذن للشافعين فى

إخراج المؤمنين الذين أوبقتهم أعمالهم فى النار فيخرجون وقد ماتوا وتفحموا فيلقون فى نهر الحياة بأفواه الجنة فينبتون كما تنبت الحبة فيخرجون كأنهم اللؤلؤ ثم يدخلهم الله جل ثناؤه الجنة .

حديث الصراط :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قلنا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « **هل تضارون[1] فى رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً** » ؟ قلنا : لا ، قال : « **إنكم لا تُضارون فى رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون فى رؤيتهما** » ، ثم قال : « **ينادى منادٍ : ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم ، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم حتى يبقى من كان يعبد الله من برَّ أو فاجر وغُبَّرات[2] من أهل الكتاب ، ثم يُؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبةٌ ولا ولد ، فما تريدون ؟ قالوا : نريد أن تسقينا فيقال : اشربوا ، فيتساقطون فى**

---

(١) تضارون : رويت بتشديد الراء وبتخفيفها ، والتاء مضمومة فيهما ومعنى المشدد : هل تضارون غيركم فى حالة الرؤية بزحمة أو غيرها لخفائه ، ومعنى المخفف : هل يلحقكم فى رؤيته ضر ، وهو الضرر .

(٢) غبرات : أى : بقاياهم ، جمع غابر .

جهنم ، ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال : كذبتم لم يكن لله صاحبةٌ ولا ولد فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا فيقال : اشربوا ، فيتساقطون ، حتى يبقى من كان يعبد الله من بَرٍّ أو فاجر فيقال لهم : ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم(1) ، وإنّا سمعنا منادياً ينادى : ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون وإنما ننتظر ربنا ، قال : فيأتيهم الجبّار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة فيقول : أنا ربكم ، فيقولون: أنت ربنا - وفى رواية عند البخارى(2) - فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون ، فلا يكلمه إلا الأنبياء ، فيقول : هل بينكم وبينه آية تعرفونه ؟ فيقولون : الساق ، فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً(3) ، ثم يُؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى

(1) أى : فارقناهم فى الدنيا لما زاغوا مع احتياجنا لهم ، ولزمنا طاعته سبحانه ، فهم يتضرعون إلى الله سبحانه أن يكشف هذه الشدة عنهم .
(2) الفتح : ١٧/١٩٧ .
(3) الطبق : فقار الظهر ، أى : صار فقاره واحداً ، كالصفحة لا يقدر على السجود لله تعالى .

جهنم ،(١) قلنا : يا رسول الله : مـا الجَسـر(٢) ؟ قـال : «مَدحضةٌ مَزِلَّةٌ(٣) عليـه خطاطيف وكـلاليب(٤) وحَسَكَة(٥) مُفلطحة(٦) لها شوكة عقيفة(٧) تكون بنجـدٍ يقـال لهـا : السعدان . المؤمن عليها كـالطرف(٨) وكـالبرق وكـالريح وكأجاويد الخيل والرِّكـاب ، فناجٍ مسلم ، وناجٍ مخدوشٌ ، ومكدوس فى نار جهنم(٩) حتى يمرَّ آخرهم يسحب سحبًا ،

---

(١) وفى رواية عند مسلم قال : قال : « فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا : يا ربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً ـ حتى إن بعضهم ليكاد ينقلب ـ فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول فى صورته التى رأوه فيها أول مرة فقال : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا ، رواه مسلم ١٦٨ .

(٢) الجسر : بفتح الجيم وكسرها وهو الصراط .

(٣) مدحضة مزلة : الدحض والمزلة بمعنى واحد وهو الموضع الذى تزل فيه الأقدام ولا تستقر .

(٤) الخطاطيف والكلاليب : جمع خطاف وكلوب أو كلاب . والخطاف حديدة حجناء أى : معوجة ، والكلوب أيضاً حديدة معطوفة الرأس .

(٥) الحسكة : شوكة صلبة معروفة .

(٦) مفلطحة : عريضة .

(٧) عقيفة : ملوية كالصنارة .

(٨) كالطرف : أى أنه يمر بسرعة الطرف ، وهو إطباق الجفن على الجفن .

(٩) معناه أن أصحاب الصراط ثلاثة أقسام : قسم يسلم فلا يناله شىء ، وقسم يخدش ثم يرسل فيخلص ، وقسم يكدس ويسقط فى جهنم ، ومكدوس فى النار أى : مدفوع .

فما أنتم بأشدَّ لى مناشدة فى الحق قد تبيَّن لكم من المؤمن يومئذ للجبار ، وإذا رأوا أنهم قد نجوا فى إخوانهم(١) ، يقولون : ربنا ، إخواننا كانوا يُصلُّون معنا ويصومون معنا ويعملون(٢) معنا ، فيقول الله تعالى : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرِّم الله صورهم على النار ، فيأتونهم وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه فيُخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيُخرجون من عرفوا ، ثم يعودون فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا . قال أبو سعيد : فإن لم تصدقونى فاقرءوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النساء: ٤٠] ، « فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون فيقول الجبار : بقيت شفاعتى فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتُحشوا(٣) فيلقون فى نهر بأفواه الجنة يقال له : ماء الحياة ، فينبتون فى حافتيه كما تنبت الحبة فى حميل السيل(٤) قد رأيتموها إلى جانب الصخرة إلى جانب الشجرة فما كان إلى الشمس منها كان أخْضر

---

(١) أى : العُصاة الذين سقطوا فى النار .

(٢) وفى رواية : ويحجون .

(٣) امتحشوا : احترقوا .

(٤) حميل السيل : هو ما يجىء به السيل من طين وغيره .

وما كان منها إلى الظلّ كان أبيض فيخرجون كأنهم اللؤلؤ فيجعل فى رقابهم الخواتيم ، فيدخلون الجنة فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن ، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه » متفق عليه[1] .

شفاعة النبى ﷺ **فى إخراج المؤمنين من النار :**

فإذا فرغ الله جل ذكره من القضاء بين العباد وعرف كلٌ سبيله ، أذن سبحانه بالشفاعة ، فشفع الأنبياء والملائكة والمؤمنون فيمن كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وشفع الملائكة فيمن احترق من أهل الذنوب والمعاصى حتى إذا شفع هؤلاء قال الرحمن : بقيت شفاعتى ، فيقبض قبضة من النار فيخرج أقواماً قد امتحشوا فيلقون فى نهر بأفواه الجنة يقال له ماء الحياة فينبتون فى حافتيه .

عن معبد بن هلالٍ العنزى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : حدثنا محمد ﷺ قال : **« إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له : اشفع لذرّيتك فيقول : لستُ لها ، وساق الحديث حتى قال : « فأُوْتى فأَقول : أنا لها فأنطلق فأستأذن على ربّى فيُؤذَن لى فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليه الآن يُلْهِمنِيه الله ثم أخِرُّ له ساجداً فيقال لى : يا محمد ارفع**

(١) الفتح ١٧/١٩٨ ، ومسلم ١٦٧ .

رأسك وقل يسمع لك وسل تُعطه واشفع تُشفع فأقول : يا رب أُمّتى أُمّتى فيقال : انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبةٍ من برّةٍ أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ، ثم أرجع إلى ربى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول : أُمّتى أمتى فيقال لى : انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان فأخرجه منها ، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربى فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فأقول : يا ربِّ أمتى أمتى فيقال لى : انطلق فمن كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبّةٍ من خردل من إيمان فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل » .

هذا حديث أنس الذى أنبأنا به ، فخرجنا من عنده فلما كنا بظهر الجبّان[1] قلنا : لو ملنا إلى الحسن[2] فسلّمنا عليه ، وهو مستخف فى دار أبى خليفة ، قال : فدخلنا عليه فسلّمنا عليه فقلنا : يا أبا سعيد جئنا من عند أخيك أبى حمزة فلم نسمع مثل حديث حدثناه فى الشفاعة قال : هِيْهِ[3] ، فحدثناه

---

(١) الجبان والجبانة : هما الصحراء ويسمى بهما المقابر لأنها تكون فى الصحراء .

(٢) هو الحسن البصرى رحمه الله .

(٣) هيه : لفظة تقال عند الاستزادة من الحديث .

الحديث فقال : هيه قلنا ما زادنا ، قال : قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذٍ جميع[1] ولقد ترك شيئاً ما أدرى أنسى الشيخ أو كره أن يحدثكم فتتكلوا ، قلنا له : حدثنا ، فضحك وقال : خلق الإنسان من عجلٍ ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه : « **ثم أرجع إلى ربى فى الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخرُّ له ساجداً فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فأقول : يا ربِّ ائذن لى فيمن قال : لا إله إلا الله . قال : ليس ذاك لك** (أو قال: ليس ذاك إليك) **ولكن وعزّتى وكبريائى وعظَمتى وجبريائى**[2] **لأُخْرِجنَّ منها من قال : لا إله إلا الله** » متفق عليه[3] .

شفاعة النبى ﷺ فى أهل الكبائر من أُمَّته :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل نبىٍ دعوة مستجابة فتعجَّل كل نبى دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً » متفق عليه[4] .

أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله مَنْ

---

(١) جميع : أى مجتمع القوة والحفظ .
(٢) أى : عظمتى وسلطانى وقهرى .
(٣) الفتح : ٢٥٢/١٧ ، ومسلم ١٨٢ .
(٤) الفتح : ٢٢٨/١٧ ، ومسلم ١٨٩ .

أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال : « **لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أوّل منك لما رأيت من حرْصِك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قِبَلِ نفسه**»[1] رواه البخارى[2] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : المراد بهذه الشفاعة المسئول عنها هنا بعض أنواع الشفاعة وهى التى يقول ﷺ : «**أمتى أمتى** » فيقال له : أخرج من النار من فى قلبه وزن كذا من الإيمان ، فأسعد الناس بهذه الشفاعة من يكون إيمانه أكمل ممن دونه ، وأما الشفاعة العظمى فى الإراحة من كرب الموقف فأسعد الناس بها من يسبق إلى الجنة وهم الذين يدخلونها بغير حساب ، ثم الذين يلونهم ، وهو من يدخلها بغير عذاب بعد أن يحاسب ويستحق العذاب ، ثم من يصيبه لفح من النار ولا يسقط[3] .

إخراج العصاة الموحِّدين من النار بعد موتهم فيها رحمة من عند الله تعالى :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها**

---

(۱) أى : قال ذلك باختياره .
(۲) الفتح : ۲۳۸/۱٤ .
(۳) الفتح : ۲۳۸/۱٤ .

ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر[1] **ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبَّة تكون فى حَمِيْلِ السيل »**[2] فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية . رواه مسلم[3] .

قال النووى رحمه الله : وأمَّا معنى الحديث فالظاهر والله أعلم أن الكفار الذين هم أهل النار والمستحقون للخلود لايموتون فيها ولا يحيون كما قال تعالى : ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر : ٣٦] ، وكما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٣] ، وهذا جارٍ على مذهب أهل الحق أن نعيم أهل الجنة دائم وأن عذاب أهل الخلود فى النار دائم ، وأمَّا قوله ﷺ : « **ولكن ناس أصابتهم النار** » إلى آخره فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى إماتة بعد أن يعذَّبوا المدة التى أرادها الله تعالى وهذه الإماتة إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ثم يميتهم ثم يكونون محبوسين فى النار من غير إحساس المدة التى قدرها الله تعالى ثم يخرجون من النار موتى

---

(١) ضبائر ضبائر : أى : جماعات متفرقة .

(٢) حميل السيل : هو ما يجيء به السيل من طين وغيره ونبات الحب فيه سريع.

(٣) مسلم ١٧٢ .

قد صاروا فحماً فيُحملون ضبائر كما تُحملُ الأمتعة ويلقون على أنهار الجنة فيصبُ عليهم ماء الحياة فيحيْون وينبتون ويصيرون إلى منازلهم ، وتكمل أحوالهم فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه والله أعلم(١) .

أصحاب الأعراف :

قال الله عز وجل : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا(٢) وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ(٣) وَعَلَى الْأَعْرَافِ(٤) رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ (٥)وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ

---

(١) شرح مسلم : ٣٨/٣ .

(٢) أى : يبغون أن تكون السبيل إلى الله تعالى معوجة غير مستقيمة حتى لا يسلكها أحد وذلك بكثرة ما يرمون به هذه السبيل بالشبهات والتهم وغيرها .

(٣) حجاباً : حاجزاً .

(٤) الأعراف : قيل: إنه سور ، وقيل : إنه تلٌ بين الجنة والنار ، وقيل غير ذلك والله أعلم بالصواب .

(٥) أى : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه .

أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾ [الأعراف] .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة فإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك قال : قوموا ادخلوا الجنة فإنى قد غفرت لكم . رواه الحاكم فى المستدرك وقال : هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى[1] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : لما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة . قال ابن جرير الطبرى رحمه الله : وهو السور الذى قال الله تعالى فيه ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] ، وهو الأعراف الذى قال الله تعالى فيه ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ [الأعراف : ٤٦] ، قال: والأعراف جمع عرف ، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه . قال ابن كثير : واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم قوم استوت

---

(١) المستدرك : ٢/٣٢٠ .

حسناتهم وسيئاتهم ، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف ، رحمهم الله (١) .

القنطرة بين الصراط والجنة :

فإذا جاز المؤمنون على الصراط ونجوا من النار وشفعوا فيمن أذن الله تعالى من أهل النار دخلوا الجنة إلا من كانت له مظلمة عند أخيه فإنهم يحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ليقتص بعضهم من بعض ثم يؤذن لهم فى دخول الجنة .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يَخْلُص المؤمنون من النار فيُحْبَسُون على قنطرة بين الجنة والنار فيُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هُذّبوا ونُقُّوا أُذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمدٍ بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا** » رواه البخارى(٢) .

قال الحافظ ابن حجر : ولعلَّ أصحاب الأعراف منهم ، يعنى رحمه الله : الذين كانت عندهم مظالم كثيرة لإخوانهم بحيث تستوى حسناتهم وسيئاتهم فيطول حبسهم ويرون أصحاب الصراط يسقطون فى النار فيشفقون منها ويرون أصحاب الجنة فى الجنة فينادونهم : ﴿ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٦] والله أعلم .

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/١٧١ .

(٢) الفتح : ١٤/١٩٠ .

النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : «تحاجّت الجنة والنار فقالت النار : أُوثِرْتُ بالمُتكبّرين والمتجبّرين ، وقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسَقَطُهُمْ ؟[1] قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذابى أُعذّب بك من أشاء من عبادى ، ولكلّ واحدةٍ منهما ملؤها ، فأمّا النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قَطْ قَطْ[2] فهنالك تمتلئ ويُزْوى[3] بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خَلْقه أحدًا ، وأمّا الجنة فإنّ الله عزّ وجلّ ينشئ لها خلقاً ، متفق عليه[4] .

* * *

(١) أى : المحتقرون بينهم الساقطون من أعينهم .

(٢) أى : حسبى يكفينى هذا .

(٣) أى : يضم بعضها إلى بعض فتجتمع على من فيها .

(٤) الفتح : ٢١٩/١٠ ، ومسلم ٢١٨٧ .

الفهـــرس